بسم الله الرحمن الرحيم

بدء الخلق وعجائبه وآيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته

للإمامين
الإمام الحافظ / ابن كثير والإمام / ابن قيم الجوزية

الجزء الأول
- الله عزوجل خالق كل شىء
- خلق العرش والكرسى
- ذكر اللوح المحفوظ
- خلق السماوات والأرض وما بينهما
- خلق الملائكة وصفاتهم
- أقسام الملائكة وأعمالهم
- خلق الجان وقصة الشيطان
- الشيطان يقف بطرق ابن آدم كلها

الجزء الثانى
- معنى التفكير
- كمال خلق العالم
- عجائب خلق السماء
- أسرار الشمس والقمر
- آيات الله تعالى فى الليل والنهار
- حكمة الله عزوجل فى النبات
- آيات الله فى خلق الحيوان
- العقول تشهد بأن للعالم ربا

اعداد
مصطفى محمد لطفى القطان

الجزء الأول

بدء الخلق وعجائبه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الإمام الحافظ : ابن كثير رحمه الله تعالى

الحمد لله الأول الآخر الباطن الظاهر الذي هو بكل شيء عليم الأول فليس قبله شيء الآخر فليس بعده شيء الظاهر فليس فوقه شيء الباطن فليس دونه شيء الأزلي القديم الذي لم يزل موجودا بصفات الكمال ولا يزال دائما مستمرا باقيا سرمديا بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء وعدد الرمال وهو العلي الكبير المتعال العلي العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ورفع السماوات بغير عمد وزينها بالكواكب الزاهرات وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وسوى فوقهن سريرا شرجعا عاليا منيفا متسعا مقبيا مستديرا وهو العرش العظيم له قوائم عظام تحمله الملائكة الكرام وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام ولهم زجل بالتقديس والتعظيم وكذا أرجاء السموات مشحونة بالملائكة ويفد منهم في كل يوم سبعون ألفا إلى البيت المعمور بالسماء الرابعة لا يعودون إليه آخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم ووضع الأرض للأنام على تيار الماء وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام قبل خلق السماء وأثبت فيها من كل زوجين اثنين دلآلة للألباء من جميع ما يحتاج العباد إليه في شتائهم وصيفهم ولكل ما يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم وبدأ خلق الإنسان من طين وجعل نسله من سلالة من ماء مهين في قرار مكين فجعله سميعا بصيرا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا وشرفه بالعلم والتعليم خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر وصور جنته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وخلق منه زوجه حواء أم البشر فأنس بها وحدته وأسكنها جنته وأسبغ عليهما نعمته ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم وبث منهما رجالا كثيرا ونساء وقسمهم بقدره العظيم ملوكا ورعاة وفقراء وأغنياء وأحرارا وعبيدا وحرائر وإماء وأسكنهم أرجاء الأرض طولها والعرض وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض إلى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطار تشق الأقاليم إلى الأمصار ما بين صغار وكبار على مقدار الحاجات والأوطار وأنبع لهم العيون والآبار وأرسل عليهم السحائب بالأمطار فأنبت لهم سائر صنوف الزرع والثمار وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقالهم وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار فسبحان الكريم العظيم الحليم وكان من أعظم نعمه عليهم وإحسانه إليهم بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل وأنطقهم أن أرسل رسله إليهم وأنزل كتبه عليهم مبينة حلاله وحرامه وأخباره وأحكامه وتفصيل كل شيء في المبدإ والمعاد إلى يوم القيامة فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم والأوامر بالإنقياد والنواهي بالتعظيم ففاز بالنعيم المقيم وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ذات الزقوم والحميم والعذاب الأليم

أحمده حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه يملأ أرجاء السماوات والأرضين دائما أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى يوم الدين في كل ساعة وآن ووقت وحين كما ينبغي لجلاله العظيم وسلطانه القديم ووجهه الكريم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ولد له ولا والد له ولا صاحبة له ولا نظير ولا وزير له ولا مشير له ولا عديد ولا نديد ولا قسيم

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم خاتم الأنبياء وصاحب الحوض الأكبر الرواء صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة وحامل اللواء الذي يبعثه الله المقام المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم صلى الله عليه وعلى سائر أخوانه من النبيين والمرسلين وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم وأعلى تشريف وتكريم ورضي الله عن جميع أصحابه الغر الكرام السادة النجباء الأعلام خلاصة العالم بعد الأنبياء ما اختلط الظلام بالضياء وأعلن الداعي بالنداء وما نسخ النهار ظلام الليل البهيم

أما بعد

فهذا الكتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدإ المخلوقات من خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والإعتماد عليه وإنما الإعتماد والإستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم

فقد **قال : الله تعالى في كتابه**

(كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا) طه 99

وقد قص الله على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر ما مضى من خلق المخلوقات وذكر الأممم الماضين وكيف فعل بأوليائه وماذا أحل بأعدائه وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته بيانا شافيا سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه صلوات الله وسلامه عليه من ذلك تلو الآيات الواردات في ذلك فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجم في فهمه طوائف من علماء اهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحو نحوهم ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الإختصار ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا وما خالفه فوقع فيه الإنكار

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج وحدثوا عني ولا تكذبوا علي ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار

فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها فيجوز روايتها للإعتبار وهذا هو الذي نستعمل في كتابنا هذا فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال

فإذا كان الله سبحانه وله الحمد قد أغنانا برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الشرائع وبكتابه عن سائر الكتب فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط وكذب ووضع وتحريف وتبديل وبعد ذلك كله نسخ وتغيير فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا وشرحه وأوضحه عرفه من عرفه وجهله من جهله كما قال : علي بن أبي طالب كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وقال : أبو ذر رضي الله عنه لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا منه علما

وقال : البخاري في كتاب بدء الخلق وروي عن عيسى بن موسى غنجار عن رقية عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه

قال : أبو مسعود الدمشقي في أطرافه هكذا قال البخاري وإنما روه عيسى غنجار عن أبي حمزة عن رقية

وقال : الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده

حدثنا أبو عاصم حدثنا عزرة بن ثابت حدثنا علباء بن أحمر اليشكري حدثنا أبو زيد الأنصاري قال : قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ثم نزل فصلى الظهر ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى العصر ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا

وانفرد بإخراجه مسلم فرواه في كتاب الفتن من صحيحه

عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي وحجاج بن الشاعر جميعا عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبي زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه

فصل

قال : الله تعالى في كتابه العزيز

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) **الزمر 62**

إن كل ما سواه تعالى فهو مخلوق له مربوب مدبر مكون بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته وتحت تصريفه ومشيئته (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) **الحديد 4**

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم فاختلفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدون على قولين كما بينا ذلك في التفسير وسنتعرض لإيراده في موضعه واختلفوا هل كان قبل خلق السماوات والأرض شيء مخلوق قبلهما فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض **وقال : آخرون** بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر **لقوله : تعالى** (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) **الآية 7 هود**

وفي حديث عمران بن حصين مرفوعا " كان الله ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض"

وقال : الإمام أحمد بن حنبل

حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن عمه أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم " أين كان ربنا قبل ان يخلق السماوات والأرض قال : كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء " .

ورواه عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة به ولفظه

أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه وباقيه سواء وأخرجه الترمذي عن أحمد بن منيع وابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هارون

وقال : الترمذي حسن واختلف هؤلآء في أيهما خلق أولا فقال : قائلون : خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزي وغيرهما

قال : ابن جرير

وبعد القلم السحاب الرقيق واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام احمد وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن أول ما خلق الله القلم ثم قال : له اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة " **لفظ الإمام أحمد**

وقال : الترمذي حسن صحيح غريب والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أن العرش مخلوق قبل ذلك وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما

كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه

حيث قال : حدثني أبو الطاهر احمد بن عمرو بن السرج حدثنا ابن وهب اخبرني أبو هانيء الخولاني عن أبي عبدالرحمن الجيلي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء "

صحيح مسلم

قالوا : فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ويؤيد هذا

ما رواه البخاري

عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال : أهل اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : " كان الله ولم يكن شيء قبله وفي رواية معه " **صحيح البخارى**

وفي رواية غيره "وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض "

وفي لفظ ثم خلق السماوات والأرض فسألوه عن ابتداء خلق السماوات والأرض ولهذا قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم عما سألوا فقط ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم

قال : ابن جرير وقال : آخرون بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش

رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود رضي الله عنهم وعن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء

وحكى ابن جرير عن محمد بن إسحاق أنه قال : أول ما خلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما وجعل النور نهارا مضيئا مبصرا

قال : ابن جرير خلق ربنا بعد القلم الكرسي ثم خلق بعد الكرسي العرش ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل

ذكر فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسي

قال : الله تعالى (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) **غافر 15**

وقال : تعالى

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) **المؤمنون 116**

وقال : الله تعالى (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) **النمل 26**

وقال : تعالى (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) **البروج 14 - 15**

وقال : تعالى (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) **طه 5**

وقال : تعالى

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) **الأعراف 54**

في غير ما آية من القرآن

وقال : تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

غافر 7

وقال : تعالى

(وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) **الحاقة 17**

وقال : تعالى (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) **الزمر 75**

وفي الدعاء في الصحيح في دعاء الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش الكريم لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم"

صحيح البخارى

.

وقال : الإمام أحمد

حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثني سماك بن حرب عن عبدالله بن عميرة عن الأحنف ابن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : "كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء فمرت سحابة فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما هذا قال : قلنا : السحاب قال : والمزن قال : قلنا : والمزن : قال : والعنان : قال : فسكتنا فقال : هل تدرون كم بين السماء والأرض قال : قلنا : الله ورسوله أعلم قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكشف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء "

لفظ الإمام أحمد

ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث سماك بإسناده نحوه وقال : الترمذي هذا حديث حسن وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه
ولفظ أبي داود وهل تدرون بعد ما بين السماء والأرض قالوا : لا ندري قال : بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتين أو ثلاثة وسبعون سنة والباقي نحوه سنن أبى داود
وقال : أبو داود
حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا : حدثنا وهب بن جرير قال أحمد كتبناه من نسخته وهذا لفظه قال : حدثنا أبي قال: سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جبير بن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه عن جده قال :" أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وجاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك أتدري ما تقول : وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال : ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله إن عرشه على سماواته لهكذا وقال : بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب " .
قال : ابن بشار في حديثه إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سماواته
وساق الحديث
وقال : عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده قال : أبو داود والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين وعلي بن المديني ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كما قال : الإمام أحمد أيضا وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار في نسخة واحدة فيما بلغني تفرد بإخراجها أبو داود
وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي جزءا في الرد على هذا الحديث سماه ببيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن بشار راويه وذكر كلام الناس فيه
ولكن قد روي هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق فرواه عبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما وابن أبي عاصم والطبراني في كتابي السنة لهما والبزار في مسنده والحافظ الضياء المقدسي في مختاراته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عبدالله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : "أتت إمرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنة قال : فعظم الرب تبارك وتعالى وقال : إن كرسيه وسع السماوات والأرض وإن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد من ثقله ".
عبدالله بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور وفي سماعه من عمر نظر ثم منهم من يرويه موقوفا ومرسلا ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم
وثبت في صحيح البخاري
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن " .

يروى - وفوقه بالفتح على الظرفية وبالضم

قال : شيخنا الحافظ المزي

وهو أحسن أي وأعلاها عرش الرحمن وقد جاء في بعض الآثار أن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وهو تسبيحه وتعظيمه وما ذاك إلا لقربهم منه

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ "

وذكر الحافظ بن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب صفة العرش عن بعض السلف أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة

وذكرنا عند **قوله : تعالى** (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) .

المعارج 4

أنه بعد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة واتساعه خمسون ألف سنة

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير

وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل

وأيضا فإنه فوق الجنة والجنة فوق السماوات وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك

وأيضا فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما **قال : تعالى** (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) **النمل 23**

وليس هو فلكا ولا تفهم منه العرب ذلك والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات **قال : الله تعالى**

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

غافر 7

وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية وفوق ظهورهن العرش **وقال : تعالى**

(وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) **الحاقة 17**

وقال : شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد

حدثنا عبدالله بن محمد هو أبو بكر ابن أبي شيبة حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عقبة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق أمية يعني ابن أبي الصلت في بيتين من شعره فقال : -

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق فقال : -

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء مطلع لونها متورد
تأبى فلا تبدو لنا في رسلها إلا معذبـــــــة وإلا تجلد

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق

فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة فيعارضه حديث الأوعال اللهم إلا أن يقال : إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم والله أعلم ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله : -

مجدوا الله فهو للمجد أهـــــل ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بهر النا س وسوى فوق السـماء سريرا
شرجعا لا يناله بصـــر الـعين ترى حوله الملائك صـــورا

صور جمع أصور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو

والشرجع : هو العالي المنيف والسرير : هو العرش في اللغة

ومن شعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه الذي عرض به عن القراءة لإمرأته حين اتهمته بجاريته

شهدت بأن وعد الله حـــــق وأن النار مثوى الكـافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كــــــرام ملائكة الإلـــــه مسومينا

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة

وقال : أبو داود

حدثنا أحمد بن حفص بن عبدالله حدثني أبي حدثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

ورواه ابن أبي عاصم ولفظه محقق الطير مسيرة سبعمائة عام

وأما الكرسي

فروى ابن جرير من طريق جويبر وهو ضعيف عن الحسن البصري أنه كان يقول : الكرسي هو العرش

وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا في **قوله : تعالى**

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

البقرة 255

أي : علمه والمحفوظ عن ابن عباس رضى الله عنهما

كما رواه الحاكم في مستدركه وقال : إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري

وعن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل

وقد - رواه شجاع بن مخلد الفلاس في تفسيره

عن أبي عاصم النبيل عن الثوري فجعله مرفوعا والصواب أنه موقوف على ابن عباس وحكاه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري والضحاك بن مزاحم واسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير ومسلم البطين

وقال : السدي عن أبي مالك الكرسي تحت العرش

وقال : السدي السماوات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين العرش يدي

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم

من طريق الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفارة

وقال : ابن جرير

حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال : قال : ابن زيد حدثني أبي قال : " قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدارهم سبعة ألقيت في ترس " قال : وقال : أبو ذر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض " .

أول الحديث مرسل وعن أبي ذر منقطع

وقد روى عنه من طريق أخرى موصولا

فقال : الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره

أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني أنبأنا عبدالله ابن وهيب المغربي أنبأنا محمد بن أبي سري العسقلاني أنبأنا محمد بن عبدالله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل " رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكرسي فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة " .

وقال : ابن جرير في تاريخه

حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا أبي عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن **قوله : عز وجل**

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ) **هود 7**

على أي شيء كان الماء قال : على متن الريح قال : والسماوات والأرضون وكل ما فيهن من شيء تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيما قيل : الكرسي

وروى عن وهب ابن منبه نحوه وفسر وهب الهيكل فقال : شيء من أطراف السماوات يحدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط

وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة

أن الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمونه فلك الكواكب الثوابت وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السماوات السبع بشيء كثير ورد الحديث المتقدم بأن نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك فإن قال : قائلهم فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكا

فنقول : الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك وإنما هو كما قال :غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه ومثل هذا لا يكون فلكا وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه هذا مع اختلافهم في ذلك أيضا كما هو مقرر في كتبهم والله أعلم

فصل

ذكر اللوح المحفوظ

قال : الحافظ أبو القاسم الطبراني

حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبدالله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما " أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خلق ولوما محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور لله فيه في كل يوم ستون وثلثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء " .

وقال : إسحاق بن بشر أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة

قال : واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور وكلامه معقود بالعرش

وقال : أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره من السلف اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل

وقال : مقاتل هو عن يمين العرش .

فصل

ذكر ما ورد في خلق السماوات والأرض وما بينهما

قال : الله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) الأنعام 1

وقال : تعالى

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) السجدة 4

في غير آية من القرآن وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على قولين : - فالجمهور على أنها كأيامنا هذه وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك وكعب الأحبار أن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون رواهن ابن جرير وابن أبي حاتم

واختار هذا القول : الإمام أحمد ابن حنبل في كتابه الذي رد فيه على الجهمية وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم

وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم وغيره أن أسماء الأيام الستة أبجد هوزحطي كلمن سعفص قرشت

وحكى ابن جرير - في أول الأيام ثلاثة أقوال : تروى عن محمد بن إسحاق أنه قال : يقول: أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد ويقول : أهل الإنجيل ابتدأ الله الخلق يوم الإثنين ونقول : نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأ الله الخلق يوم السبت

وهذا القول : الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم وسيأتي فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه خلق الله التربة يوم السبت والقول : بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه وعن مرة عن ابن مسعود رضي الله عنه وعن جماعة من الصحابة ورواه أيضا عن عبدالله بن سلام واختاره ابن جرير وهو نص التوراة ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء وهو أشبه بلفظ الأحد

ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فإتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه إن شاء الله

وقال : تعالى

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) **البقرة 29**

وقال : تعالى

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) **فصلت 9 - 12**

فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كما **قال : تعالى**

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) **غافر 64**

قال : تعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) **النبأ 6 - 12**

وقال : تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) **الأنبياء 30**

أي فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون والأنهار وانتعش الحيوان ثم قال : تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) **الأنبياء 32**

أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات وما في ذلك من الدلآلآت على حكمة خالق الأرض والسماوات كما **قال :**
تعالى (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) **يوسف 105 -106**

فأما قوله : تعالى (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) **النازعات 27 -33**

فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة

فإن مقتضى هذه الآية أن دحى الأرض وأخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء وقد كان ذلك مقدرا فيها بالقوة كما **قال : تعالى** (وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ) **فصلت 10**

أي - هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعا فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار ونبت الزرع والثمار

ولهذا فسر الدحى بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال **فقال : تعالى**
(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) **النازعات 30 -31**

وقوله : تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) **النازعات 32**

أي قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها **وقوله : تعالى** (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) **الذاريات 46 -48**

(بِأَيْدٍ) : أي بقوة وإنا لموسعون وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها

ولهذا كان الكرسي أعلى من السموات وهو أوسع منهن كلهن والعرش أعظم من ذلك كله بكثير

وقوله : تعالى بعد هذا (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا)

أي بسطناها وجعلناها مهدا أي قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم ولهذا **قال : تعالى** (فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

والواو لا تقتضي الترتيب في الوقوع وإنما يقتضي الإخبار المطلق في اللغة والله أعلم

وقال : البخاري

حدثنا عمر بن جعفر بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال : "دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال : أقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا قد بشرتنا فأعطانا مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم قالوا : قد قبلنا يا رسول الله قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر قال : كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل

شيء وخلق السماوات والأرض فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي تقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها " .
وقد رواه في كتاب المغازي وكتاب التوحيد وفي بعض ألفاظه
ثم خلق السموات والأرض وهو لفظ النسائي أيضا
وقال : الإمام أحمد بن حنبل
حدثنا حجاج حدثني ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة رضى الله عنها عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاث وخلق النور يوم الأربعاء وبث الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر خلق خلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل " .
وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهارون بن عبدالله والنسائي عن هارون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيصي الأعور عن ابن جريج به مثله سواء
وقد رواه النسائي في التفسير
عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني عن محمد بن الصباح عن أبي عبيدة الحداد عن الأخضر بن عجلان عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيدي فقال : يا أبا هريرة إن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع وخلق التربة يوم السبت " . وذكر تمامه بنحوه
فقد اختلف فيه على ابن جريج وقد تكلم في هذا الحديث على ابن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ قال : البخاري في التأريخ وقال : بعضهم عن كعب وهو أصح يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة رضي الله عنه وتلقاه من كعب الأحبار فإنهما كان يصطحبان ويتجالسان للحديث فهذا يحدثه عن صحفه وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأكد رفعه بقوله : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ثم في متنه غرابة شديدة فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السماوات وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السماوات في يومين من دخان وهو بخار الماء الذي إرتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من ربذة الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كما قال : إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ
(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)   البقرة 29
قال : إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فإرتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس

الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين الأحد والإثنين وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي **قال : الله تعالى** (نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) **القلم 1**
.
والحوت في الماء والماء على صفات والصفات على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب وفتق السماء وكانت رتقا فجعلها سبع سماوات في يومين الخميس والجمعة وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها ثم قال : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظا يحفظ من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش
هذا الإسناد يذكر به السدي أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقي من الإسرائيليات فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفا له وتعجبا مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر فإستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ولما جاء من الأذن في التحديث عن بني إسرائيل لكن كثيرا ما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير
وقد - روى البخاري في صحيحه
عن معاوية أنه كان يقول : في كعب الأحبار وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب
أي فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم
ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التكلان
قال : البخاري
حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبدالرحمن القرشي عن أبي زناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي " .
وكذا رواه مسلم والنسائي عن قتيبة به
فصل

ذكر ما جاء في سبع أرضين

قال: تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) **الطلاق 12**
ثم قال : حدثنا علي بن عبدالله أخبرنا ابن علية عن علي بن المبارك حدثنا يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة بن عبدالرحمن وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض فدخل على عائشة رضى الله عنها فذكر لها ذلك فقالت :

يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين " .
ورواه أيضا في كتاب المظالم ومسلم من طرق عن يحيى بن كثير به ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة به ورواه أيضا عن يونس عن أبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عائشة رضى الله عنها بمثله

قال : البخاري

حدثنا بشر بن محمد قال : أخبرنا عبدالله عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال : **قال : النبي صلى الله عليه وسلم** " من أخذ شيئا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين " .
ورواه في المظالم أيضا عن مسلم بن إبراهيم عن عبدالله هو ابن المبارك عن موسى بن عقبة به وهو من أفراده وذكر البخاري حديث محمد بن سيرين عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثني عشر شهرا " .
الحديث ومراده والله أعلم تقرير **قوله : تعالى**

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) **الطلاق 12**

أي في العدد كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول فهذه مطابقة في الزمن كما أن تلك مطابقة في المكان

ثم قال : البخاري

حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه خاصمته أروى في حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان فقال : سعيد رضي الله عنه أنا أنتقص من حقها شيئا أشهد لسمعت "رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين " .

وقال : الإمام أحمد

حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبدالله بن لهيعة حدثنا عبدالله ابن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن عن ابن مسعود قال : قلت :" يا رسول الله أي الظلم أعظم **قال :** زراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها" .

تفرد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به

وقال : الإمام أحمد

حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أخذ شبرا من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين " .

تفرد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم

وقال : الإمام أحمد

حدثنا يحيى عن ابن عجلان حدثني أبي عن أبي هريرة رضى الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من اقتطع شبرا من الأرض بغير حقه طوقه إلى سبع أرضين " . **تفرد به أيضا وهو على شرط مسلم**

وقال : الإمام أحمد أيضا
حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" من أخذ من الأرض شبرا بغير حقه طوقه من سبع أرضين " . **تفرد به أيضا**
وقد رواه الطبراني
من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعا مثله فهذه الأحاديث كالمتواترة في اثبات سبع أرضين
والمراد بذلك - أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر إلى السابعة وهي صماء لا جوف لها وفي وسطها المركز وهي نقطة مقدرة متوهمة وهو محط الأثقال إليه ينتهي ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضا
والظاهر أن بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضا
والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر **قوله : تعالى** (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) **الآية**
وقال : الإمام أحمد
حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبدالملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مرت سحابة فقال : أتدرون ما هذه قلنا الله ورسوله أعلم قال : العنان وزوايا الأرض تسوقه إلى من لا يشكرونه من عباده ولا يدعونه أتدرون ما هذه فوقكم قلنا : الله ورسوله أعلم قال : الرفيع موج مكفوف وسقف محفوظ أتدرون كم بينكم وبينها قلنا : الله ورسوله أعلم قال : مسيرة خمسمائة سنة ثم قال : أتدرون ما الذي فوقها قلنا الله ورسوله أعلم قال : مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع سماوات ثم قال : أتدرون ما فوق ذلك قلنا : الله ورسوله أعلم قال : العرش أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة قلنا : الله ورسوله أعلم قال : مسيرة خمسمائة عام ثم قال : أتدرون ما هذه تحتكم قلنا : الله ورسوله أعلم قال : أرض أتدرون ما تحتها قلنا : الله ورسوله أعلم قال : أرض أخرى أتدرون كم بينهما قلنا : الله ورسوله أعلم قال : مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال : وأيم الله لو دليتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبط ثم قرأ
(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) **الحديد 3**
ورواه الترمذي عن عبد بن حميد وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبدالرحمن عن قتادة قال : حدث الحسن عن أبي هريرة وذكره إلا أنه ذكر أن بعد ما بين كل أرضين خمسمائة عام وذكر في آخره كلمة ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد
ثم قال : الترمذي هذا حديث غريب من هذا الوجه

قال : ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد أنهم قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي جعفر الرازي عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره ورواه ابن جرير في تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلا وقد يكون هذا أشبه والله أعلم

ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي من حديث أبي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لا يصح إسناده والله أعلم

وقد ـ تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يخالف هذا في إرتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له وفيه وبعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام وكثفها أي سمكها خمسمائة عام

وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث طوقه من سبع أرضين أنها سبعة أقاليم فهو قول : يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم

وهكذا ـ ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا

فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله

وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم

فهذا ذكره ابن جرير مختصرا واستقصاه البيهقي في الأسماء والصفات وهو محمول إن صح نقله عنه على أنه أخذه ابن عباس رضي الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم

وقال : الإمام أحمد

حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال : نعم الحديد قالت يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال : نعم النار قالت يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال : نعم الريح قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله" .

تفرد به أحمد .

وقد ذكر أصحاب الهيئة ـ إعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقا وغربا وذكروا طولها وبعد إمتدادها وإرتفاعها وأوسعوا القول : في ذلك بما يطول شرحه هنا وقد قال:الله تعالى **(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)** **فاطر 27**

قال : ابن عباس وغير واحد الجدد الطرائق

وقال : عكرمة وغيره الغرايب الجبال الطوال السود

وهذا هو الشاهد من الجبال في سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها وقد ذكر الله تعالى في كتابه الجودي على التعيين وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى

جانب دجلة عند الموصل إمتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وإرتفاعه مسيرة نصف يوم وهو أخضر لأن فيه شجرا من البلوط وإلى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين والله أعلم .

فصل

ذكر خلق البحار والأنهار

قال : الله تعالى (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) **النحل 14 - 18**

وقال : تعالى (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) **فاطر 12**

وقال : تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا) **الفرقان 53**

وقال : تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ) **الرحمن 19 -20**

فالمراد - بالبحرين البحر الملح المر وهو الأجاج والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة

وقال : تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ) **الشورى 32 - 34**

وقال : تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) **لقمان 29 - 31**

وقال : تعالى

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **البقرة 164**

فامتن الله تعالى - على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مر وفي هذا حكمة عظيمة

لصحة الهواء إذ لو كان حلوا لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم
ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم "عن البحر قال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته ".
وأما الأنهار ـ فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى في أرض ويسوقها إلى أخرى رزقا للعباد ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة
وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها وإلى أين ينتهي سيرها بكلام فيه حكم ودلآلآت على قدرة الخالق تعالى وأنه فاعل بالإختيار والحكمة **وقوله : تعالى**
(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) **الطور 6**
فيه قولان :-
أحدهما ـ أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال وأنه فوق السماوات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها
وهذا القول : هو اختيار الربيع بن أنس .
والثاني ـ أن البحر اسم جنس يعم سائر البحار التي في الأرض وهو قول الجمهور **.**
واختلفوا في معنى البحر المسجور فقيل المملوء وقيل : يصير يوم القيامة نارا تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في التفسير عن علي وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم
وقيل : المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا رواه الوالبي عن ابن عباس رضى الله عنهما
وهو قول : السدي وغيره ويؤيده الحديث الذي **رواه الإمام أحمد**
حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثني شيخ كان مرابطا بالساحل قال : لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : حدثنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله عز وجل أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل " .
ورواه إسحاق بن راهويه
عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب حدثني شيخ مرابط قال : خرجت ليلة لمحرس لم يخرج أحد من المحرس غيري فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إلي أن البحر يشرف يحاذي برءوس الجبال فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ فلقيت أبا صالح فقال : حدثنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل".
وفي إسناده رجل مبهم والله أعلم .
وهذا ـ من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بما خلقه

في السماء والأرض من النجوم والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم وبما خلق لهم فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما **قال : تعالى** (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) **المائدة 96**

وقال : النبي صلى الله عليه وسلم : "هو الطهور ماؤه الحل ميتته " .

وفي الحديث الآخر " أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال " .

رواه أحمد وابن ماجه وفي إسناده نظر .

وقد قال : الحافظ أبو بكر البزار في مسنده

وجدت في كتاب عن محمد بن معاوية البغدادي

حدثنا عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه رفعه قال : كلم الله هذا البحر الغربي وكلم البحر الشرقي فقال : للغربي أني حامل فيك عبادا من عبادي فكيف أنت صانع بهم قال أغرقهم قال : بأسك في نواحيك وحرمه الحلية والصيد وكلم هذا البحر الشرقي **فقال :** إني حامل فيك عبادا من عبادي فما أنت صانع بهم قال : أحملهم على يدي وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد

ثم قال : لا تعلم أحدا ما رواه عن سهيل إلا عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر وهو منكر الحديث

قال : وقد رواه سهيل عن عبدالرحمن بن أبي عياش عن عبدالله بن عمرو موقوفا

قلت : الموقوف على عبدالله بن عمرو بن العاص أشبه فإنه قد كان وجد يوم اليرموك ذاملتين مملوءتين كتبا من علوم أهل الكتاب فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود فأما المعروف فتفرد به عبدالرحمن بن عبدالله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها قال : فيه الإمام أحمد ليس بشيء وقد سمعته منه ثم مزقت حديثه كان كذابا وأحاديثه مناكير وكذا ضعفه بن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجاني والبخاري وأبو داود والنسائي وقال : ابن عدي عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر .

قال : علماء التفسير المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية في اصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية وما في البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات وما يوجد في كل قطر من صنوف المعادن والتجارات

قالوا : الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع منها وهو تسعون درجة والعناية الالهية اقتضت إنحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزرع والثمار منها كما **قال : تعالى** (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) **الرحمن 9 -13**

قـالوا : المعمـور مـن هـذا البـادي منهـا قريـب الثلثـين منـه أو أكثـر قلـيلا وهـو خمـس وتسعون درجة

وقالوا : فالبحر المحيط الغربي ويقال : له أوقيانوس وهو الذي يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درج مسافة شهر تقريبا وهـو بحـر لا يمكـن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه واختلاف ما فيه من الريـاح والأمـواج ولـيس فيـه صـيد ولا يستخرج منه شيء ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ في ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القمر

ويقال : جبال القمر التي منها أصل منبع نيل مصـر ويتجـاوز خـط الإسـتواء ثـم يمتـد شرقا ويصير جنوبي الأرض وفيه هناك جزائر الزابج وعلى سـواحله خـراب كثيـر ثـم يمتد شرقا وشمالا حتى يتصل بحـر الصـين والهنـد ثـم يمتـد شـرقا حتـى يسـامت نهايـة الأرض الشرقية المكشوفة وهناك بلاد الصين ثم ينعطـف فـي شـرق الصـين إلـى جهـة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ويسامت سد يأجوج ومأجوج ثم ينعطف ويستدير علـى أراضي غير معلومة الأحوال ثم يمتد مغربا فـي شـمال الأرض ويسـامت بـلاد الـروس ويتجاوزهـا ويعطـف مغربـا وجنوبـا ويسـتدير علـى الأرض ويعـود إلـى جهـة الغـرب وينبثق من الغربي إلى متن الأرض الزقاق الذي ينتهي أقصـاه إلـى أطـراف الشـام مـن الغرب ثم يأخذ في بلاد الروم حتى يتصـل بالقسـطنطينية وغيرهـا مـن بلادهـم وينبعـث من المحيط الشرقي بحار أخر فيها جزائر كثيرة حتى إنه يقال : إن في بحـر الهنـد ألـف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقـال : لهـا البحـر الأخضر فشرقيه بحر الصـين وغربيـه بحـر الـيمن وشـماله بحـر الهنـد وجنوبيـه غيـر معلوم .

وذكـروا ـ أن بـين بحـر الهنـد وبحـر الصـين جبـالا فاصـلة بينهمـا وفيهـا فجـاج يسـلك المراكب بينها يسيرها لهم الذي خلقها كما جعل مثلهـا فـي البـر أيضـا قـال : الله تعـالى (وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) **النحل 15**

وقـد ذكـر فـى أصـل هـذه العلـوم أن البحـار المتفجـرة مـن المحـيط الغربـي والشـرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جدا فمنها ما هو واحد ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمـة لـه فمن ذلك بحر القلـزم والقلـزم قريـة علـى سـاحله قريـب مـن أيلـة وبحـر فـارس وبحـر الخزرة وبحر ورنك وبحر الروم وبحر بنطش وبحر الأزرق مدينـة علـى سـاحله وهـو بحر القرم أيضا ويتضايق حتى يصب في بحـر الـروم عنـد جنـوبي القسـطنطينية وهـو خليج القسطنطينية ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إلى بحـر الـروم وتبطـيء إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم لإستقبالها جريان الماء وهذا من العجائب في الـدنيا فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكد فهو ملح أجاج إلا مـا يـذكر عـن بحـر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة مـاء حلـوا فراتـا علـى مـا أخبر به المسافرون عنه .

قال : أهل الهيئـة ـ وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول مـا هـو وقيـل إنـه مثلـث كـالقلع ولـيس هـو متصـلا بشـيء مـن البحـر المحيط بـل منفـرد وحـده وطولـه ثمانمائـة ميـل وعرضه ستمائة وقيل : أكثر من ذلك والله أعلم .

ومن ذلك ـ البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفي بلاد المغرب نظيره أيضا يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد ثم يشرع في النقص وهو الجزر إلى آخر الشهر وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها

وذكروا ما في الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح .

وذكروا ـ ما في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار وذكروا إبتداءها وإنتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث

وقد قال : الله تعالى

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) **إبراهيم 32 - 34**

ففي الصحيحين

من طريق قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما ذكر سدرة المنتهى قال : فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران فأما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات " .

وفي لفظ في البخاري

وعنصرهما أي مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعتهما وليس في الدنيا مما في الجنة إلا سماوية

وفي صحيح مسلم

من حديث عبدالله بن عمر عن خبيب بن عبدالرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة ".

وقال : الإمام أحمد

حدثنا ابن نمير ويزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرت أربعة أنهار من الجنة الفرات والنيل وسيحان وجيحان " . **وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم**

وكأن المراد ـ والله أعلم من أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفائها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها

كما قال : في الحديث الآخر الذي رواه الترمذي وصححه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : :العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم " .

أي : تشبه ثمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة فإن الحس يشهد بخلاف ذلك فتعين أن المراد غيره وكذا قوله : "صلى الله عليه وسلم " الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء"

وكذلك قوله : صلى الله عليه وسلم: " إذا اشتد الحمى فأبردوها بالماء فإن شدة الحر من فيح جهنم " .
وهكذا - هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض .
أما النيل - وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه فمبتداه من الجبال القمر أي البيض ومنهم من يقول : جبال القمر بالإضافة إلى الكواكب وهي في غربي الأرض وراء خط الإستواء إلى الجانب الجنوبي ويقال : أنها حمر ينبع من بينها عيون ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة ثم يجتمع كل خمسة منها في بحر ثم يخرج منها أنهار ستة ثم يجتمع كلها في بحيرة أخرى ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان الحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دنقلة ثم على أسوان ثم يفد على ديار مصر وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها وإجترف من ترابها وهي محتاجة إليهما معا لأن مطرها قليل لا يكفي زروعها وأشجارها وتربتها رمال لا تنبت شيئا حتى يجيء النيل بزيادته وطينه فينبت فيه ما يحتاجون إليه وهي من أحق الأراضي بدخولها في **قوله : تعالى** **(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) السجدة 27**
ثم يجاوز النيل مصر قليلا فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطانوف فيمر الغربي على رشيد ويصب في البحر المالح وأما الشرقي فتفترق أيضا عند جوجر فرقتين تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها ويصب في البحر والشرقية منهما تمر على أشمون طناح فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط يقال : لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط
وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه ولهذا كان ألطف المياه
قال : ابن سينا له خصوصيات دون مياه سائر الأرض فمنها أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه ومنها أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال ومنها أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته ومنها أن زيادته في أيام نقصان سائر الأنهار ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها
وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولا عظيما وجواري حسانا وأشياء غريبة وأن الذي إطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين .
وقد قال : عبدالله بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال : لما فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم القبطية فقالوا : يا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها فقال : لهم وما ذاك قالوا : إذا كان اثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فارضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل فقال : لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة والنيل لا يجري لا قليلا ولا كثيرا وفي رواية فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجري حتى هموا بالجلاء فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك فكتب

إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجرى وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك فألقى عمرو البطاقة في النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم .

وأما الفرات - فأصلها من شمالي أرض الروم فتمر إلى قرب مالطيه ثم تمر على شميشاط ثم على البيرة قبليها ثم تشرق إلى بالس وقلعة جعبر ثم الرقة ثم إلى الرحبة شماليها ثم إلى عانة ثم إلى هيت ثم إلى الكوفة ثم تخرج إلى فضاء العراق ويصب في بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة .

وأما سيحان - ويقال : له سيحون أيضا فأوله من بلاد الروم ويجري من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربي مجرى جيحان ودونه في القدر وهو ببلاد الأرض التي تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت في أول الدولة الإسلامية في أيدي المسلمين فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها عن الأعداء فتغلب نقفور الأرمني على هذه البلاد أعني بلاد سيس في حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا والله المسئول عودها إلينا بحوله وقوته ثم يجتمع سيحان وجيحان عند إذنه فيصيران نهرا واحدا ثم يصبان في بحر الروم بين أياس وطرسوس.

وأما جيحان - ويقال : له جيحون أيضا وتسميه العامة جاهان وأصله في بلاد الروم ويسير في بلاد سيس من الشمال إلى جنوب وهو يقارب الفرات في القدر ثم يجتمع هو وسيحان عند اذنة فيصيران نهرا واحدا ثم يصبان في البحر عند إياس وطرسوس والله أعلم .

فصل

ذكرخلق السماوات والأرض

قال : الله تعالى

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **الرعد 2 -4**

وقال : تعالى (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) **النمل 61 - 64**

وقال : تعالى (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) النحل 10 – 12

فذكر تعالى - ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري والقفار والبر والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما **قال : تعالى** (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) **هود 6**

وقد روى الحافظ أبو يعلى

عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكدر عن جابر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خلق الله ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه " .

عبيد بن واقد أبو عباد البصري ضعفه أبو حاتم وقال : بن عدي عامة ما يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه

قال : الفلاس والبخاري منكر الحديث

وقال : أبو زرعة لا ينبغي أن يحدث عنه وضعفه ابن حبان والدارقطني وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم .

وقال : تعالى (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) **الأنعام 38**

فصل

ذكر ما يتعلق بخلق السماوات وما فيهن من الآيات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما **قال تعالى** (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) **البقرة 29**

وقال : تعالى (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) **فصلت 10 -12**

وقال : تعالى

(أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) **النازعات 27 -30**

فإن الدحى غير الخلق وهو بعد خلق السماء

وقال : تعالى

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) **الملك 1 -11**

وقال : تعالى

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) **النبأ 12 -13**

وقال : تعالى (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) **نوح 15 -16**

وقال : تعالى

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) **الطلاق 12**

وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) **الفرقان 61 - 62**

.

وقال : تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) **الصافات 6 - 10**

وقال : تعالى (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ) **الحجر 16 - 18**

وقال : تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) **الذاريات 47**

وقال : تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) **الأنبياء 32 – 33**

.

وقال : تعالى (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) **يس 37 -40**

وقال : تعالى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) **الأنعام 96 - 97**

وقـال : تعـالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) **الأعراف 54**

والآيات في هذا كثيرة جدا وقد تكلمنا على كل منها في التفسير

والمقصود - أنه تعالى يخبر عن خلق السماوات وعظمة إتساعها وإرتفاعها وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما

قال : تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) **الذاريات 7**

أي - الخلق الحسن

وقال : تعالى (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) **الملك 3 – 4**

أي - خاسئا عن أن يرى فيها نقصا أو خللا وهو حسير أي كليل ضعيف ولو نظر حتى يعي ويكل ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما **قال : تعالى** (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) **البروج 1**

أي - النجوم

وقيل : مجال الحرس التي يرمي منها بالشهب لمسترق السمع ولا منافاة بين القولين

وقال : تعالى (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) **الحجر 16 – 17**

فذكر - أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات الشمس والقمر والنجوم الزاهرات وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى فقال وحفظناها من كل شيطان رجيم كما **قال : تعالى**

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ) **الصافات 6 – 8**

قال : البخاري في كتاب بدء الخلق

وقال : قتادة (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) **الملك 5**

خلق هذه النجوم الثلاث جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به وهذا الذي قاله : قتادة مصرح به في **قوله : تعالى** (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) **الملك 5**

وقال : تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) **الأنعام 97**

فمن ـ تكلف غير هذه الثلاث أي من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها وأن ذلك يدل على حوادث أرضيه فقد أخطأ وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوي باطلة وذكر تعالى أنه (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) **الملك 3**

أي واحدة فوق واحدة

واختلف أصحاب الهيئة هل هن متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء على قولين والصحيح الثاني لما قدمنا من حديث عبدالله بن عميرة عن الأحنف عن ابن عباس رضى الله عنهما في حديث الأوعال "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون كم بين السماء والأرض قلنا : الله ورسوله أعلم قال : بينهما مسيرة خمسمائة عام ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة " .

الحديث بتمامه رواه إمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه

وفي الصحيحين

من حديث أنس رضى الله عنه في حديث الإسراء

قال : فيه ووجد في السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال : له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فرد عليه السلام وقال : مرحبا وأهلا بابني نعم الابن أنت إلى أن قال : ثم عرج إلى السماء الثانية وكذا ذكر في الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة .

فدل على التفاصل بينها لقوله : صلى الله عليه وسلم ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل : من هذا الحديث

وهذا يدل على ما قلناه والله أعلم

وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج ابن الجوزي وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السماوات كرة مستديرة واستدل على **ذلك بقوله : تعالى** (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) **الأنبياء 33**

قال : الحسن ... يدورون

وقال : ابن عباس ... في فلكة مثل فلكة المغزل

قالوا : ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق كما قال : أمية ابن أبي الصلت : .

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء مطلع لونها متورد
تأبي فلا تبدو لنا في رسلها إلا معذبه والا تجلد

فأما الحديث الذي رواه البخاري

حيث قال: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين غربت الشمس تدري أين تذهب قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها

يقال : لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك **قولـه : تعـالى** (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) **يس 38**

هذا لفظه في بدء الخلق

ورواه في التفسير وفي التوحيد من حديث الأعمش أيضا ورواه مسلم في الإيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه عن أبي ذر به نحوه

وقال : الترمذي حسن صحيح

إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من إستدارة الأفلاك التي هي السماوات على أشهر القولين ولا يدل على كرية العرش كما زعمه زاعمون قد أبطلنا قولهم فيما سلف ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السماوات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه وهو الرابع فيما قاله : غير واحد من علماء التفسير وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلا في إعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي فإنها تكون أبعد ما يكون من العرش لأنه مقبب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا فإذا كانت في محل سجودها إستأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدوا من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال: أمية

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها إلا معذبة والا تجلد

فإذا ـ كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فجاء أنها تسجد أيضا ثم تستأذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير فتقول : يا رب إن الفجر قد إقترب وإن المدى بعيد فيقال : لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا جميعا وذلك حين (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ) **الأنعام 158**

وفسروا بذلك **قوله : تعالى**

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) **يس 38**

قيل : لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها

وقيل : مستقرها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش

وقيل : منتهى سيرها وهو آخر الدنيا وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ (والشمس تجري لا مستقر لها)

أي ليست تستقر فعلى هذا تسجد وهي سائرة ولهذا

قـال : تعـالى (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) **يس 40**

أي - لا تدرك الشمس القمر فتطلع في سلطانه ودولته ولا هو أيضا ولا الليل سابق النهار أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل إذا ذهب النهار جاء الليل في أثره متعقبا له كما **قال : تعالى في الآية الأخرى**

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) **الأعراف 54**

وقال : تعالى

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) **الفرقان 62**

أي - يخلف هذا لهذا وهذا لهذا كما قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم " .

فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما ولهذا **قال : تعالى** (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) **فاطر 13**

فيولج من هذا في هذا أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا فيعتدلان كما في أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلا والنهار قصيرا فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص حتى يعتدلا أيضا في أول فصل الخريف ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف ثم يترجح النهار قليلا قليلا ويتناقص الليل شيئا فشيئا حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كما قدمنا وهكذا في كل عام ولهذا **قال : تعالى** (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) **المؤمنون 80**

أي - هو المتصرف في ذلك كله الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السماوات والنجوم والليل والنهار (ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) **يس 38**

أي - العزيز الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فلا يمانع ولا يغالب العليم بكل شيء فقدر كل شيء تقديرا على نظام لا يختلف ولا يضطرب

وقد ثبت في الصحيحين

من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار ".

وفي رواية " فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره ".

قال : العلماء كالشافعي وأبي عبيد القاسم بن سلام وغيرهما

يسب الدهر أي يقول : فعل بنا الدهر كذا يا خيبة الدهر أيتم الأولاد أرمل النساء قال : الله تعالى (وأنا الدهر) أي أنا الدهر الذي يعنيه فإنه فاعل ذلك الذي أسنده إلى الدهر والدهر مخلوق وإنما فعل هذا هو الله فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر والله هو الفاعل لذلك الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء كما قال : وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره وكما **قال : تعالى** (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) **آل عمران 26 - 27**

وقال : تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)
. **يونس 5 - 6**

أي - فاوت بين الشمس والقمر في نورهما وفي شكلهما وفي وقتهما وفي سيرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر

(والقمر نورا) أي أضعف من برهان الشمس وجعله مستفادا من ضوئها وقدره منازل أي يطلع أول ليلة من الشهر صغيرا ضئيلا قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره

ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر ثم يشرع في النقص لإقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كما بدا في أول الشهر الثاني فبه تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنين والأعوام

ولهذا **قال : تعالى** (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ) **يونس 5**

وقال : تعالى

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) **الإسراء 12**

وقال : تعالى

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ) **البقرة 189**

وقد بسطنا القول : على هذا كله في التفسير

فالكواكب التي في السماء منها سيارات وهي المتخيرة في إصطلاح علماء التفسير وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ودعوى ما لا دليل عليه وهي سبعة القمر في سماء الدنيا وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهي عندهم في الفلك الثامن وهو الكرسي في اصطلاح كثير من المتأخرين

وقال : آخرون بل الكواكب كلها في السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض وقد يستدل على هذا

بقوله : تعالى

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ) **الملك 5**

وبقوله : تعالى (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) **فصلت 12**

فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم

وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات تدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق فالقمر يقطع فلكه في شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة

فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا اثنتي عشرة مرة وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة

فعلى هذا يكون بقدر السماء الدينا ثلثمائة وستين مرة .

وقد تكلموا ـ على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا في هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ومما لا علم لكثير منهم به

وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم في هذا كلام كثير يطول بسطه وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبوابا سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلا على صفة الكواكب السبعة يعبدون كل واحد في هيكله ويدعونه بدعاء يؤثرعنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم

وذكره صاحب السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم

وغيره من علماء الحرنانيين فلاسفة حران في قديم الزمان وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبع وهم طائفة من الصابئين

ولهذا **قال : الله تعالى** (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) **فصلت 37**

وقال : تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال : لسليمان عليه السلام مخبرا عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ في اليمن وما والآها (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) **النمل 23 - 26**

وقال : تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) **الحج 18**

وقال : تعالى

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) **النحل 48 – 50**

وقال : تعالى (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) الرعد 15

وقال : تعالى (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) الإسراء 44

والآيات في هذا كثيرة جدا .

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السماوات والأرض هي الكواكب وأشرفهن منظرا وأشرفهن معتبرا الشمس والقمر استدل الخليل على بطلان آلهية شيء منهن وذلك في قوله : تعالى (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) الأنعام 76

أي - للغائبين

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الأنعام 77 – 78

فبين - بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للالهية لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة

ولهذا **قال : تعالى** (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) فصلت 37

وثبت في الصحيحين في صلاة الكسوف

من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "في خطبته يومئذ أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ".

وقال : البخاري في كتابه بدء الخلق

حدثنا مسدد حدثنا عبدالعزيز بن المختار حدثنا عبدالله الداناج حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" الشمس والقمر مكوران يوم القيامة " .

انفرد به البخاري

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار

فقال - حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبدالعزيز بن المختار عن عبدالله الداناج سمعت أبا سلمة بن عبدالرحمن زمن خالد بن عبدالله القسري في هذا المسجد مسجد الكوفة وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال : حدثنا أبو هريرة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة " .

فقال : الحسن وما دينهما فقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : وما دينهما
ثم قال : البزار لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ولم يرو عبدالله الداناج عن أبي سلمه سوى هذا الحديث
وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي من طريق يزيد الرقاشي وهو ضعيف عن أنس قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم "الشمس والقمر ثوران عقيران في النار" .
وقال : ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبدالله الأزدي حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ من بجيلة عن ابن عباس رضى الله عنهما
(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) **التكوير 1**
قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحا دبورا فتضرمها نارا
فدلت هذه الآثار- على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراد ثم يفعل فيها ما يشاء وله الحجة الدافعة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك قال : ابن هشام هي لأمية بن أبي الصلت

إلى الله أهدي مدحتي وثنائيا	**وقولا رضيا لا يني الدهر باقيا**
إلى الملك الأعلى الذي ليس	**فوقه إله ولا رب يكون مدانيا**
ألا أيها الإنسان إياك والردى	**فإنك لا تخفي من الله خافيا**
وإياك لا تجعل مع الله غيره	**فإن سبيل الرشد أصبح باديا**
حنانيك إن الجن كانأأت رجاءهم	**وأنت إلهي ربنا ورجائيا**
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى	**أدين إلها غيرك الله ثانيا**
وأنت الذي من فضل من ورخمة	**بعثت إلى موسى رسولا مناديا**
فقلت له إذهب وهأأأأرون فادعو	**إلى الله فرعون الذي كان طاغيا**
وقولا له آأنت سويت هذه	**بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا**
وقولا له آأنت رفعت هذه	**بلا عمد ارفق إذا بك بانيا**
وقولا له آأنت سويت وسطها	**منيرا إذا ماجنه الليل هاديا**
وقولا له من يرسل الشمس غدوة	**فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا**
وقولا له من ينبت الحب في الثرى	**فيصبح منه البقل يهتز رابيا**
ويخرج منه حبه في رؤسه	**وفي ذاك آيات لمن كان واعيا**
وأنت بفضل منك نجيت يؤنسا	**وقد بات في أضعاف حوت لياليا**
وإني لو سبحت باسمك ربنا	**لا كثر إلا ما غفرت خطائيا**
فرب العباد ألق سيبا ورحمة	**علي وبارك في بني وماليا**

فإذا - علم هذا فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى كما **قال : تعالى**

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فصلت 12

فصل

ذكر قصة هاروت وماروت

وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت ومروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فرفعت كوكبا إلى السماء

فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل

وقد روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه في ذلك حديثا

رواه الإمام أحمد عن يحيى ابن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر القصة بطولها وفيه فمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها وذكر القصة

وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن كعب الأحبار به وهذا أصح وأثبت

وقد روى الحاكم في مستدركه وابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنما فذكره وقال : فيه وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وذكر تمامه في هذه القصة والله أعلم

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار

حدثنا محمد بن عبدالملك الواسطي حدثنا يزيد بن هرون حدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر ءضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم

وحدثنا عمرو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى حدثنا إبرهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ذكر سهيلا فقال : كان عشارا ظلوما فمسخه الله شهابا " .

ثم قال : لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث وإنما ذكرناه على ما فيه من علة لأنا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين

قلت ـ أما مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي وأصله من الكوفة فقد ضعفه الجميع وقال : فيه الإمام أحمد والدارقطني كان يضع الحديث ويكذب وأما إبراهيم بن يزيد فهو الخوزي وهو ضعيف بإتفاقهم قال : فيه أحمد والنسائي متروك .

وقال : ابن معين ليس بثقة وليس بشيء

وقال : البخاري سكتوا عنه .

وقال : أبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث ضعيف الحديث

ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكلية وإذا أحسنا الظن قلنا هذا من أخبار بني إسرائيل كما تقدم من رواية بن عمر عن كعب الأحبار ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها والله أعلم .

فصل

ذكرالمجرة وقوس قزح

قال : أبو القاسم الطبراني

حدثنا علي بن عبدالعزيز حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما

أن هرقل كتب إلى معاوية وقال : إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه قال : فكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة قال : فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال : إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا من لهذا قيل: ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق والمجرة باب السماء الذي تنشق منه الأرض وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه

فأما الحديث الذي رواه الطبراني حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا إبراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبدالله قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم" يا معاذ إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل هي لعاب حية تحت العرش : .

فإنه حديث منكر جدا بل الأشبه أنه موضوع

ورواية الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصري ثم إنتقل إلى مصر قال : فيه أبو حاتم الرازي هو مجهور حدث بالأباطيل

وقال : الحافظ أبو الفتح الأزدي منكر الحديث جدا

وقال : ابن عدي لا يتابع على أحاديثه لا متنا ولا إسنادا

وقال : الله تعالى

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) **الرعد 12 – 13**

وقال : تعالى

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **البقرة 164**

وروى الإمام أحمد

عن يزيد بن هارون عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بني غفار قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك " .

وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن إبرهيم أنه قال : إن نطقة الرعد وضحكه البرق

وقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي والبخاري في كتاب الأدب والحاكم في مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة حدثني ابن مطر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال : "اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك " .

وروى **ابن جرير** من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رضى البله عنه رفعه كان إذا سمع الرعد قال : سبحان من يسبح الرعد بحمده وعن علي بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان يقول : سبحان من سبحت له

وكذلك - عن ابن عباس رضى الله عنه والأسود بن يزيد وطاوس وغيرهم

وروى **مالك** عن عبدالله ابن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول : إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض

وروى الإمام أحمد

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال : "ربكم لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكرا " .

وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمنة.

فصل

ذكر خلق الملائكة وصفاتهم

قال : الله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) **الأنبياء 26 - 29**

وقال : تعالى (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) **الشورى 5**

وقال : تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) **غافر 7 – 8**

وقال : تعالى

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) **فصلت 38**

وقال : تعالى (وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) **الأنبياء 19**

وقال : تعالى (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)
الصافات 164 - 166

وقال : تعالى (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) مريم 64

وقال : تعالى (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)الإنفطار 9 – 12

وقال : تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) المدثر 31

وقال : تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) الرعد 23 – 24

وقال : تعالى

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فاطر 1

وقال : تعالى

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) الفرقان 25 - 26

وقال : تعالى

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) الفرقان 21 - 22

قال : تعالى (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ) البقرة 98 .

وقال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) التحريم 6

الآيات في ذكر الملائكة كثيرة جدا يصفهم تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل في الصور المتعددة كما

قال : تعالى (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ) هود 77 - 78

الآيات فذكرنا في التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدو لهم في صورة شباب حسان إمتحانا وإختبارا حتى قامت على قوم لوط عليه السلام الحجة وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر

وكذلك كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي وتارة في صورة أعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين مرة منهبطا من السماء إلى الأرض وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى وهو **قوله : تعالى** (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) النجم 5 – 8

أي - جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر وعائشة رضى الله عنهم (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ)
النجم 9 – 10

أي - إلي عبدالله محمد صلى الله عليه وسلم ثم **قال : تعالى** (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ) **النجم 13 – 17**

وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء في سورة سبحان أن سدرة المنتهى في السماء السابعة وفي رواية في السادسة أي أصلها وفروعها في السابعة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها

قيل : غشيها نور الرب جل جلاله

وقيل : غشيها فراش من ذهب

وقيل : غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة

وقيل : غشيها الملائكة مثل الغربان

وقيل : غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها

أي من حسنها وبهائها ولا منافاة بين هذه الأقوال : إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة

وذكرنا أن "رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال وفي رواية كقلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران فأما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودونه إليه آخر ما عليهم وأنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مستندا ظهره إلى البيت المعمور " .

وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض

وقد روى سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكوا سأل علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن البيت المعمور فقال : هو مسجد في السماء يقال له الضراح وهو بحيال الكعبة من فوقها حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة لا يعودون إليه أبدا

وهكذا روى علي بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي مثله

وقال : الطبراني أنبأنا الحسن بن علوية القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة يعني في الأرض " .

وهكذا قال : العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدي وغير واحد
وقال : قتادة ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يوما لأصحابه هل تدرون ما البيت المعمور قالوا : الله ورسوله أعلم قال : قال : مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم " . .
وقال : آخرون - في كل سماء بيت يعمره ملائكته بالعبادة فيه ويفدون إليه بالنوبة والبدل كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والإعتمار في كل وقت والطواف والصلاة في كل آن
قال : سعبد بن يحيى بن سعيد الأموي في أوائل كتابه المغازي
حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد أن الحرم حرم مناه يعني قدره من السماوات السبع والأرضين السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتا في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض
ثم روى مجاهد قال : مناه
أي مقابله وهو حرف مقصور
ثم قال : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبدالله بن عمرو يقول : إن الحرم محرم في السماوات السبع مقداره من الأرض وإن بيت المقدس مقدس في السماوات السبع مقداره من الأرض كما قال : بعض الشعراء
إن الذي سمك السماء بنى لها　　　بيتا دعائمه أشد وأطول
واسم البيت الذي في السماء بيت العزة واسم الملك الذي هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل فعلى هذا يكون السبعون ألفا من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم
أي : لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر يكونون من سكان السماء السابعة وحدها ولهذا **قال : تعالى**
(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ)　المدثر 31
وقال : الإمام أحمد
حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل " .
فقال : أبو ذر والله لوددت أني شجرة تعض
ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث إسرائيل فقال : الترمذي حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفا
وقال : الحافظ أبو القاسم الطبراني
حدثنا حسين بن عرفة المصري حدثنا عروة بن عمران الرقي حدثنا عبيدالله بن عمرو عن عبدالكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما

قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامة قالوا : جميعا ما عبدناك حق عبادتك لا نشرك بك شيئا " .

فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السماوات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم في صنوف من العبادة منهم من هو قائم أبدا ومنهم من هو راكع أبدا ومنهم من هو ساجدا أبدا ومنهم من هو في صنوف أخر والله أعلم بها وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها ولهم منازل عند ربهم كما **قال : تعالى**

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) **الصافات 165 – 166**

وقال : " صلى الله عليه وسلم ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال : يكملون الصف الأول ويتراصون في الصف " .

وقال : "صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث جعلت لنا الأرض مسجدا وتربتها لنا طهورا وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة " ,

وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفا كما **قال : تعالى** (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) **الفجر 22**

ويقفون صفوفا بين يدي ربهم عز وجل يوم القيامة كما **قال : تعالى** (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا) **النبأ 38**

والمراد - بالروح ههنا بنو آدم قاله : ابن عباس والحسن وقتادة

وقيل : ضرب من الملائكة يشبهون بني آدم في الشكل

قاله : ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش

وقيل : جبريل قاله : الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك

وقيل : ملك يقال : له الروح بقدر جميع المخلوقات

قال : علي بن أبي طلحة رضى الله عنه عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله : تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ)

قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا

وقال : ابن جرير

حدثني محمد بن خلف العسقلاني حدثنا داود بن الجراح عن أبي حمزة عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود قال : الروح في السماء الرابعة هو أعظم السماوات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجيىء يوم القيامة صفا وحده . **وهذا غريب جدا**

وقال : الطبراني

حدثنا محمد بن عبدالله بن عبدالحكيم المصري حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الأوزاعي حدثني عطاء عن عبدالله بن عباس قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن لله ملكا لو قيل له التقم السماوات والأرضين بلقمة واحدة لفعل تسبيحه سبحانك حيث كنت " . **وهذا أيضا حديث غريب جدا**

وقد يكون موقوفا وذكرنا في صفة حملة العرش عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .
رواه أبو داود وابن أبي حاتم ولفظه مخفق الطير سبعمائة عام
وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم قال : الله تعالى
(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) **النجم 5**

قالوا : كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعا بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها

وقوله : تعالى (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ) **النجم 6**
أي - خلق حسن وبهاء وسناء كما
قال : تعالى في الآية الأخرى(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) **التكوير 19**
أي - جبريل رسول من الله كريم أي حسن المنظرذي قوة أي له قوة وبأس شديد عند ذي العرش مكين أي له مكانه ومنزلة عاليه رفيعة (عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) **التكوير 20 – 21**
أي - مطاع في الملأ الأعلى أمين أي ذي أمانة عظيمة

ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذي ينزل عليهم بالوحي فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة وقد كان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه في صفات متعددة كما قدمنا

وقد رآه صلى الله عليه وسلم على صفته التي خلقه الله عليها مرتين له ستمائة جناح كما روى البخاري عن طلق بن غنام عن زائدة الشيباني قال : سألت زرا عن **قوله : تعالى** (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ) **النجم 9 – 10**
قال : حدثنا عبدالله يعني ابن مسعود أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح

وقال : الإمام أحمد
حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبي وائل عن عبدالله قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم
وقال : الإمام أحمد أيضا
حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه الآية (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) **التكوير 24**
قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت " .
وقال : الإمام أحمد

حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين حدثني عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت جبريل على السدرة المنتهى وله ستمائة جناح " .

فسألت - عاصما عن الأجنحة فأبى أن يخبرني قال فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب . **وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد**

وقال : الإمام أحمد

حدثنا زيد بن الحباب حدثني حصين حدثني شقيق سمعت ابن مسعود قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل في خضر تعلق به الدر " .

إسناده صحيح

وقال : ابن جرير

حدثنا ابن بزيع البغدادي قال : حدثنا إسحاق بن منصور قال : حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبدالرحمن بن يزيد عن عبدالله ما كذب الفؤاد ما رأى قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض .

إسناد جيد قوي

وفي الصحيحين

من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال : كنت عند عائشة رضى الله عنها فقلت : أليس الله تعالى يقول :(وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) **التكوير 24**

(وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى) **النجم 14**

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل " رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : إنما ذاك جبريل لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين رآه منهبطا من السماء إلى الأرض سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض " .

وقال : البخاري

حدثنا أبو نعيم حدثنا عمر بن ذر ح وحدثني يحيى بن جعفر حدثنا وكيع عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ألا تزورنا أكثر مما تزورنا قال : فنزل **قوله : تعالى** (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) **مريم 64**

وروى البخاري

من حديث الزهري عن عبيدالله بن عبدالله عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة

وقال : البخاري

حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبدالعزيز أخر العصر شيئا فقال له عروة أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : عمر أعلم ما تقول : يا عروة قال : سمعت بشير بن أبي مسعود يقول : سمعت أبا مسعود يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نزل جبريل فأمني فصليت معه

ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس صلوات

فصل

إسرافيل عليه السلام

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة أولاهن نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث **والصور :** قرن ينفخ فيه كل دارة منه كما بين السماء والأرض وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول : الرب جل جلاله وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدخل على الأجساد في قبورها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ فتحيى الأجساد وتنشق عنهم الأجداث فيخرجون منها سراعا إلى مقام المحشر

ولهذا قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وصاحب القرن قد إلتقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له قالوا : كيف نقول : يا رسول الله قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا " .

رواه أحمد والترمذي من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري

وقال : الإمام أحمد

حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور فقال : عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل عليهم السلام" **.**

وقال : الحافظ أبو القاسم الطبراني

حدثنا محمد بن عبدالله الحضرمي حدثنا محمد بن عمر أن ابن أبي ليلى حدثني عن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبي عبد أو ملك نبي قال : فأشار جبريل إلي بيده أن تواضع فعرفت أنه لي ناصح فقلت : عبد نبي فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت : يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل فقال : هذا إسرافيل عليه السلام خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نورا ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق بين يديه لوح فإذا أذن الله في شيء من السماء أو في الأرض إرتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فإن كان من عملي أمرني به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به قلت يا جبريل وعلى أي شيء أنت قال : على الريح والجنود قلت : وعلى أي شيء ميكائيل قال : على النبات والقطر قلت : وعلى أي شيء ملك الموت قال : على قبض الأنفس وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة وما الذي رأيت مني إلا خوفا من قيام الساعة **.** **هذا حديث غريب من هذا الوجه**

وفي صحيح مسلم

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان إذا قام من الليل يصلي يقول : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما أختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " .
وفي حديث الصور أن إسرافيل عليه السلام أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصور وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل عليه السلام أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأعلام **وقال : تعالى** (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ) **البقرة 98**
عطفهما على الملائكة لشرفهما فجبريل عليه السلام ملك عظيم قد تقدم ذكره .
فصل

ميكائيل عليه السلام

وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكة المقربين
وقد قال : الإمام أحمد
حدثنا أبو اليمان حدثنا ابن عباس عن عمارة بن غزنة الأنصاري أنه سمع حميد بن عبيد مولى بني المعلى يقول : سمعت ثابتا البناني يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لجبريل ما لي لم أر ميكائيل ضاحكا قط فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار " .
فهؤلاء ـ الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن وفي الصحاح هم المذكورون في الدعاء النبوي اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض .

إسرافيل عليه السلام

وإسرافيل عليه السلام موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور ويجازى الكفور فذاك ذنبه مغفور وسعيه مشكور وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور

جبريل عليه السلام

فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء
وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله
اعلم و- قد قال : الله تعالى
(قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) **السجدة 11**

وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلقوها في أكفان تليق بها كما قد بسط عند **قوله : تعالى** (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) **إبراهيم 27**

ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقى بها إلى الأرض **قال : الله تعالى** (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) **الأنعام 61 – 62**

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا : إن الأرض بين يدي ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء

وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله إن كان مؤمنا أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح وإن كان كافرا فبالضد من ذلك عياذا بالله العظيم من ذلك

وقد قال : ابن أبي حاتم

حدثنا أبي حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري حدثنا عمرو بن شمر قال : سمعت جعفر بن محمد قال : سمعت أبي يقول : "نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال : له النبي صلى الله عليه وسلم يا ملك الموت إرفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال : ملك الموت يا محمد طب نفسا وقر عينا فإني بكل مؤمن رفيق واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتفحصهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها " .

قال : جعفر بن أبي محمد هو الصادق بلغني يتفحصهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة .

هذا حديث مرسل وفيه نظر

وذكرنا في حديث الصور

من طريق إسمعيل بن رافع المدني القاص عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بطوله وفيه ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يا رب قد مات أهل السموا والأرض إلا من شئت فيقول : الله وهو أعلم بمن بقي فمن بقي فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقي جبريل وميكائيل فيقول : ليمت جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول يا رب يموت جبريل وميكائيل فيقول : اسكت فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي فيموتان ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يا رب قد مات

جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقي فمن بقي فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول : الله لتمت حملة عرشي فتموت ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ثم يأتي ملك الموت فيقول يا رب قد مات حملت عرشك فيقول : الله وهو أعلم بمن بقي فمن بقي فيقول بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت أنا فيقول : الله أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت فيموت فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد كان آخرا كما كان أولا

وذكر تمام الحديث بطوله رواه الطبراني وابن جرير والبيهقي ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب الطوالات وعنده زيادة غريبة وهي قوله : فيقول : الله له أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت .

ومن الملائكة المسمين في الحديث منكر ونكير عليهما السلام وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر وقد أوردناها عند **قوله : تعالى** (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) **إبراهيم 27**

وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر

ملك الجبال عليه السلام

وقال : البخاري

حدثنا عبدالله بن يوسف حدثنا ابن وهب حدثني يونس عن ابن شهاب حدثني عروة أن عائشة رضى الله عنها " زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت : للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد قال : لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول : قومك لك وما ردوا به عليك وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد سل ما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال : النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا " .

ورواه مسلم من حديث ابن وهب به

فصل

الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام

فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش وهم الملائكة المقربون كما **قال : تعالى** (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) **النساء 172**

منهم جبريل وميكائيل عليهما السلام وقد ذكر الله عنهم أنه يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما **قال : تعالى**

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

غافر 7 - 9

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم "أنه قال : إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال : الملك آمين ولك بمثل ما دعوت به ".

ومنهم - سكان السماوات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلا ونهارا صباحا ومساء كما **قال : تعالى**

(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) **الأنبياء 20**

فمنهم - الراكع دائما والقائم دائما والساجد دائما ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم

ومنهم - الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وخازن الجنة ملك يقال : له رضوان عليه السلام جاء مصرحا به في بعض الأحاديث

ومنهم - الموكلون بالنار وهم الزبانية ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة وهم المذكورون في **قوله : تعالى** (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ) **غافر 49**

وقال : تعالى (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) **الزخرف 77 – 78**

وقال : تعالى

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) **التحريم 6**

وقال: تعالى

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ)

المدثر 30 – 31

ومنهم - الموكلون بحفظ بني آدم كما قال : تعالى

(سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) **الرعد 10 – 11**

قال : الوالبي عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله : تعالى (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ) **الرعد 11**

وهي الملائكة

وقال : عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما يحفظونه من أمر الله قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه

وقال : مجاهد ما من عبد الا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام وليس شيء يأتيه يريده إلا قال : وراءك الا شيء يأذن الله فيه فيصيبه

وقال : أبو أسامة ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له

وقال : أبو مجلز جاء رجل إلى علي رضى الله عنه فقال : إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه إن الأجل جنة حصينة

ومنهم - الموكلون بحفظ أعمال العباد كما **قال : تعالى**

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) **ق 17 – 18**

وقال : تعالى

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) **الإنفطار 10 – 12**

قال : الحافظ أبو محمدعبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره

حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا وكيع حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الجنابة والغائط فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بحائط أو بعيره أو يستره أخوه " . **هذا مرسل من هذا الوجه**

وقد وصله البزار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان وفيه كلام عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من الله والذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات الغائط والجنابة والغسل فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو بعيره : .

ومعنى اكرامهم أن يستحي منهم فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها فإن الله خلقهم كراما في خلقهم وأخلاقهم ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه قال : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب " .

وفي رواية - عن عاصم بن ضمرة عن علي ولا بول

وفي رواية رافع عن أبي سعيد رضى الله عنه مرفوعا " لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال " .

وفي رواية مجاهد - عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعا لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو تمثال .

وفي رواية ذكوان عن أبي صالح السماك عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس " .

ورواه زرارة بن أوفى عنه لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس

وقال : البزار

حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوس حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام عن منصور بن راذان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ملائكة الله يعرفون بني آدم وأحسبه قال : ويعرفون أعمالهم فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا : أفلح الليلة فلان نجا الليلة فلان وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا : هلك فلان الليلة **" .**

ثم قال : سلام أحسبه سلام المدائني وهو لين الحديث

وقد قال : البخاري

حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول كيف تركتم عبادي فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون " .

هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه

وقد أخرجاه في الصحيحين

من حديث مالك عن أبي الزناد به وقال : البزار حدثنا زياد بن أيوب حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن يعني البصري عن أنس رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفارا إلا قال : الله غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة " .

ثم قال : تفرد بن تمام بن نجيح وهو صالح الحديث

قلت : وقد وثقه ابن معين وضعفه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائي وابن عدي ورماه ابن حبان بالوضع

وقال : الإمام أحمد لا أعرف حقيقة أمره

والمقصود - أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال كما ذكرنا ذلك **عند قوله : تعالى**

(**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**) **ق 17 – 18**

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد

حدثنا أسود ابن عامر حدثنا سفيان حدثنا منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبدالله هو ابن مسعود قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : وإياك يا رسول الله قال : وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير" . **انفرد بإخراجه مسلم**

فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة يحفظ الإنسان وهو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد

كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يألوه جهدا في الخبال والإضلال والمعصوم من عصمه الله عز وجل وبالله المستعان

وقال : البخاري

حدثنا أحمد بن يونس حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبدالرحمن والأغر عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجلسوا يسمعون الذكر" .

وهكذا رواه منفردا به من هذا الوجه وهو في الصحيحين من وجه آخر وقد **قال : الله تعالى**

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) **الإسراء 78**

وقال : الإمام أحمد

حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : تعالى

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) **الإسراء 78**

قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار " .

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أسباط

وقال :الترمذي حسن صحيح

وقال : البخاري

حدثنا عبدالله بن محمد حدثنا عبدالرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر يقول : أبو هريرة رضى الله عنه إقرؤا ان شئتم **(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)** **الإسراء 78**

وقال : البخاري

حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنها قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح " .

وثبت في الصحيحين

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه " .

وفي صحيح البخاري

حدثنا إسماعيل بلفظ " إذا قال : الإمام آمين فإن الملائكة تقول : في السماء آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفي صحيح البخاري

حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا قال : الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد فإن من وافق قوله : قول : الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه " .

ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك

وقال : الإمام أحمد

حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه أو عن أبي سعيد هو شك يعني الأعمش قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا أقواما يذكرون الله فنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون بهم إلى السماء الدنيا فيقول الله أي شيء تركتم عبادي يصنعون فيقولون : تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك فيقول : وهل رأوني فيقولون : لا فيقول : كيف لو رأوني فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تحميدا وتمجيدا وذكرا قال : فيقول : فأي شيء يطلبون فيقولون : يطلبون الجنة فيقول : وهل رأوها فيقولون : لا فيقول : وكيف لو رأوها فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا قال : فيقول : من أي يتعوذون فيقولون : من النار فيقول : وهل رأوها فيقولون : لا فيقول : فكيف لو رأوها فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها هربا وأشد منها خوفا قال : فيقول : أشهدكم أني قد غفرت لهم قال : فيقولون إن فيهم فلانا الخطاء لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم " .

وهكذا رواه البخاري عن قتيبة عن جرير بن عبدالحميد عن الأعمش به وقال : رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه ورفعه سهيل عن أبيه وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه كما ذكره البخاري معلقا عن سهيل ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به

وقد رواه الإمام أحمد أيضا عن غندر عن شعبة عن سليمان هو الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة كما أشار إليه البخاري رحمه الله

وقال : الإمام أحمد

حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش وابن نمير أخبرنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله

يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " .
وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية
وقال : الإمام أحمد
حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن أبي إسحاق عن الأغر أبي مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضى الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده " .
وكذا رواه أيضا من حديث إسرائيل وسفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق به نحوه ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذي من حديث الثوري وقال حسن صحيح ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبي إسحاق بإسناد نحوه وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة
وفي مسند الإمام أحمد والسنن
عن أبي الدرداء مرفوعا " وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع "
.
أي تتواضع لـه كمـا قـال : تعـالى (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) الإسراء 24
وقال : تعالى (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الشعراء 215
وقال: الإمام أحمد
حدثنا وكيع عن سفيان عن عبدالله بن السائب عن زاذان عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لله ملائكة سياحين في الأرض ليبلغوني عن أمتي السلام " .
وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان الأعمش كلاهما عن عبدالله بن السائب به
وقال : الإمام أحمد
حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم " .
وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبدة بن حميد كلاهما عن عبدالرزاق به والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جدا وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد .

فصل

اختلاف الناس في تفضيل الملائكة على البشر

وقد اختلاف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال : فأكثر ما توجد هذه المسئلة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم وأقدم كلام رأيته في هذه المسئلة ما ذكره الحافظ بن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلسا لعمر بن عبدالعزيز وعنده جماعة فقال عمر ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم واستدل **بقوله : تعالى** (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) **البينة 7**

ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال : عراك بن مالك ما أحد أكرم على الله من ملائكته هم خدمة داريه ورسله إلى أنبيائه واستدل بقوله : تعالى (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) .

الأعراف 20

فقال : عمر بن عبدالعزيز لمحمد بن كعب القرظي ما تقول : أنت يا أبا حمزة فقال : قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة فوافق عمر بن عبدالعزيز في الحكم واستدل بغير دليله وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو **قوله : تعالى** (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) **البروج 11**

مضمونة أنها ليست بخاصة بالبشر فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان **في قوله : تعالى** (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ) **غافر 7**

وكذلك الجان (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) **الجن 13 – 14**

قلت : وأحسن ما يستدل به في هذه المسئلة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبدالله بن عمرو مرفوعا وهو أصح قال :لما خلق الله الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب فإنك خلقت الدنيا لبني آدم فقال : الله لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت : له كن فكان

فصل

خلق آدم عليه السلام وخلق الجان وقصة الشيطان

قال : الله تعالى (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) **الرحمن 14 – 16**

وقال : تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ) **الحجر 26 - 27**

وقال : ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد من مارج من نار قالوا : من طرف اللهب وفي رواية من خالصه وأحسنه

وقد ذكرنا آنفا من طريق الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم ". **رواه مسلم**

قال : كثير من علماء التفسير

خلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان قبلهم في الأرض الجن فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم

وذكر السدي في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة عن ابن مسعود وعن بعض من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك الدنيا وكان من الجن

وذكر الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور

وقال : محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل وكان من سكان الأرض

وروى ابن أبي حاتم

عن سعيد بن جبير كان اسمه عزازيل الأربعة وقد أسند عن حجاج عن ابن جريج

قال : ابن عباس رضى الله عنهما كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان الأرض

وقال : صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان يسوس ما بين السماء والأرض . **رواه ابن جرير**

وقال : قتادة عن سعيد بن المسيب كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا

وقال : الحسن البصري لم يكن من الملائكة طرفة عين وانه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر

وقال : شهر ابن حوشب وغيره كان ابليس من الجن الذين طردوهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء . **رواه ابن جرير**

قالوا : فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده وصور جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك وقال : أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك فلما أن نفخ الله تعالى في آدم من روحه كما سيأتي وأمر الملائكة بالسجود له دخل ابليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) **الأعراف 12**

فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل وأخطأ في قوله : وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله النار فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين **وقال : تعالى**

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

الكهف 50

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنزل إلى الأرض حقيرا ذليلا مذؤما مدحورا متوعدا بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم بكل طريق وبكل مرصد كما **قال : تعالى** (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)

الإسراء 62 – 65

والمقصود ـ أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون كما أخبر تعالى عنهم في صورة الجن في **قوله : تعالى**

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) **الأحقاف 29 – 32**

وقال : تعالى (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) **الجن 1 – 17**

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة في آخر سورة الأحقاف وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك وأن هؤلاء النفر كانوا من جن نصيبين وفي بعض الآثار من جن بصرى وأنهم مروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا لقراءته ثم اجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال : لهم كل عظم

ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحما وكل روثة علف لدوابكم ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستنجي بهما وقال : إنهما زاد إخوانكم الجن

ونهى صلى الله عليه وسلم عن البول في السرب لأنها مساكن الجن وقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن فما جعل يمر فيها بآية

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) **الرحمن 13**

إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد وقد أثنى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا فقال : الجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليم فبأي آلاء ربكما تكذبان الا قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد .

رواه الترمذي عن جبير وابن جرير والبزار عن ابن عمررضى الله عنه

وقد اختلف في مؤمني الجن هل يدخلون الجنة أو يكون جزاء طائعهم أن لا يعذب بالنار فقط على قولين الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن ولعموم **قوله : تعالى**

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) الرحمن 46 - 47

فامتن الله تعالى عليهم بذلك فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعده عليهم من النعم وهذا وحده دليل مستقل كاف في المسألة وحده والله أعلم

وقال : البخاري

حدثنا قتيبة عن مالك عن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أن أبا سعيد الخدري رضى الله عنه قال : له إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لايسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة

قال : أبو سعيد سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

انفرد به البخاري دون مسلم

وأما كافرالجن فمنهم الشياطين ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبي البشر وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم كما **قال : تعالى**

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا) **الإسراء 65**

وقال : تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) سبأ 20 – 21

وقال : تعالى (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) **الأعراف 27**

وقال : تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ) **الحجر 28 – 44**

وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وههنا وفي سورة سبحان وفي سورة طه وفي سورة ص وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا التفسير ولله الحمد وسنوردها في قصة آدم إن شاء الله

والمقصود ـ أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختبارا منه لهم كما قال : تعالى (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) **سبأ 21**

وقال : تعالى (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) **إبراهيم 22 – 23**

فابليس لعنه الله حي الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن وقد **قال : الله تعالى**

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) **النساء 76**

وكان اسمه قبل معصيته العظيمة عزازيل

قال : النقاش وكنيته أبو كردوس

ولهذا لما قال : النبي صلى الله عليه وسلم لابن صياد ما ترى قال : أرى عرشا على الماء فقال : له النبي صلى الله عليه وسلم اخسأ فلن تعدو قدرك .

فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذي هو يشاهد عرشه على البحر

ولهذا ـ قال : صلى الله عليه وسلم له اخسأ فلن تعدو قدرك أي لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الذي رواه الامام أحمد

حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثني معاذ التميمي عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس " .

وقال : الامام أحمد

حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله رضى الله عنهما يقول : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : عرش إبليس على البحر

يبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة " . **تفرد به من هذا الوجه**

وقال : الامام أحمد

حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صائد ما ترى قال : أرى عرشا على الماء أو قال : على البحر حوله حيات قال : صلى الله عليه وسلم ذاك عرش إبليس " . **هكذا رواه في مسند جابر**

وقال : في مسند أبي سعيد

حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد رضى الله عنه أن " رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لابن صائد ما ترى قال : أرى عرشا على البحر حوله الحيات فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق ذاك عرش إبليس " .

وروى الإمام أحمد

من طريق معاذ التميمي وأبي الزبير عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم ".

وروى الإمام مسلم

من حديث الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن " النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقر بهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة يجيء أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول : كذا وكذا فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئا ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال : فيقربه ويدنيه ويقول : نعم أنت " .

يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذي تستحق الإكرام وبكسرها أي نعم منك **وقد استدل به بعض النحاة** على جواز كون فاعل نعم مضمرا وهو قليل واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم

وقد أوردنا هذا الحديث عند **قوله : تعالى** (مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ) **البقرة 102**

يعني أن السحر المتلقي عن الشياطين من الإنس والجن يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف المتوادين المتحابين ولهذا يشكر إبليس سعى من كان السبب في ذلك فالذي ذمه الله يمدحه والذي يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله وقد أنزل الله عز وجل سورتي المعوذتين مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته ولا سيما **سورة** (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) **سورة الناس**

وثبت في الصحيحين

عن أنس وفي صحيح البخاري عن صفية بنت حيى رضى الله عنها أن " رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " .

وقال : الحافظ أبو يعلى الموصلي

حدثنا محمد بن جبير حدثنا عدي بن أبي عمارة حدثنا زياد النميري عن أنس رضى الله عنه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي إلتقم قلبه فذلك الوسواس الخناس " .

ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكار للناس كما **قال : تعالى**

(وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) الكهف 24

وقال : صاحب موسى عليه السلام

(وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ) **الكهف 63**

وقال : تعالى (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) **يوسف 42**

يعني الساقي لما قال : له يوسف اذكرني عند ربك نسي الساقي أن يذكره لربه يعني مولاه الملك وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف في السجن بضع سنين

ولهذا **قال : تعالى** (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) **يوسف 45**

أي ـ مدة وقرىء بعد أمة أي نسيان

وهذا الذي قلنا : من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين كما قررناه في التفسير والله أعلم

وقال : الإمام أحمد

حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم حماره فقلت : تعس الشيطان فقال : النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال : بقوتي صرعته وإذا قلت : بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب "" . **تفرد به أحمد وهو إسناد جيد**

وقال : الامام أحمد

حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا الضحاك بن عثمان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأبس به كما يبس الرجل بدابته فإذا سكن له زنقة أو ألجمه : .

قال : أبو هريرة رضى الله عنه وأنتم ترون ذلك أما المزنوق فتراه مائلا كذا لا يذكر الا الله وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل **.** **تفرد به أحمد**

وقال : الإمام أحمد

حدثنا ابن نمير حدثنا ثور يعني ابن يزيد عن مكحول عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم " .

وقال : الإمام أحمد

حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبدالله الهمداني عن عبدالله بن شداد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به فقال : النبي صلى الله عليه وسلم الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة : .

ورواه أبو داود والنسائي من حديث منصور زاد النسائي والأعمش كلاهما عن أبي ذر به

وقال : البخاري
حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة قال : قال : أبو هريرة رضى الله عنه قال :" رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول : من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته" .
وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهري وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به
وقد قال : الله : تعالى
(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) **الأعراف 201**
وقال : تعالى (وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) .
المؤمنون 97 – 98
وقال : تعالى
(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) **الأعراف 200**
وقال : تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) **النحل 98 – 100**
وروى الإمام أحمد وأهل السنن
من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه " .
وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبدالله بن مسعود وأبي أسامة الباهلي وتفسيره في الحديث
فهمزه الموتة وهو الخنق الذي هو الصرع ونفخه الكبر ونفثه الشعر
وثبت في الصحيحين
عن أنس رضى الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء قال : أعوذ بالله من الخبث والخبائث " .
قال : كثير من العلماء استعاذ من ذكران الشياطين وإناثهم
وروى الإمام أحمد
عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من أصحاب عمر عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أتى الغائط فليستتر فإن لم يجد الا أن يجمع كثيبا فليستدبره فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم " .
ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث ثور بن يزيد به
وقال : البخاري
حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عدى بن ثابت قال : قال سليمان بن صرد "استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال : النبي صلى الله عليه وسلم إني

لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقالوا : للرجل ألا تسمع ما يقول : النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني لست بمجنون " .

ورواه أيضا مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن الأعمش

وقال : الإمام أحمد

حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبيدالله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله " .

وهذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد وهو في الصحيح من غير هذا الوجه

وروى الإمام أحمد

من حديث إسماعيل بن أبي حكيم عن عروة عن عائشة رضى الله عنها "عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكل بشماله أكل معه الشيطان ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان " .

وقال : الإمام أحمد

حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شعبة عن أبي زياد الطحان سمعت أبا هريرة رضى الله عنه "يقول : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى رجلا يشرب قائما فقال : له قه قال : لما قال : أيسرك أن يشرب معك الهر قال : لا قال : فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان " . **تفرد به أحمد من هذا الوجه**

وقال : الإمام أحمد أيضا

حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن رجل عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الذي يشرب وهو قائم ما في بطنه لإستقاء " .

قال : الإمام أحمد

حدثنا عبدالرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثل حديث الزهري

وقال : الإمام أحمد

حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير أنه سأل جابرا رضضى الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال : الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : أدركتم المبيت وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء " .

وقال : البخاري

حدثنا محمد حدثنا عبدة حدثنا محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني الشيطان " .

قال : هشام ورواه مسلم والنسائي من حديث هشام به

وقال : البخاري

حدثنا عبدالله بن مسلمة عن مالك عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى المشرق فقال : إن الفتنة ههنا إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان " .

وفي السنن

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يجلس بين الشمس والظل وقال : إنه مجلس الشيطان " .

وقد ذكروا في هذا معاني من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان لأن خلقته في نفسه مشوه وهذا مستقر في الأذهان ولهذا **قال : تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) الصافات 65**

الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم فإن النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشاؤا ولهذا **قال : تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) الصافات 65**

وقال : النسوة لما شاهدن جمال يوسف عليه السلام **(حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) يوسف 31**

وقال : البخاري

حدثنا يحيى بن جعفر حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري حدثنا ابن جريج أخبرني عطاء عن جابر رضى الله عنه "عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :إذا استجنح أو كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فحلوهم وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئا ".

ورواه الإمام أحمد

عن يحيى عن ابن جريج وعنده " فإن الشيطان لا يفتح مغلقا " .

وقال : الإمام أحمد

حدثنا وكيع عن قط عن أبي الزبير عن جابررضى الله عنهما قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم أغلقوا أبوابكم وخمروا آنيتكم وأوكوا أسقيتكم وأطفؤا سرجكم فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء **وإن** الفويسقة تضرم البيت على أهله " .

يعني الفأرة

وقال : البخاري

حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه " .

وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما مثله

ورواه أيضا

عن موسى بن إسماعيل عن همام عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما "عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أما لو أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولدا لم يضره الشيطان "

وقال : البخاري

حدثنا إسماعيل حدثنا أخي عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان " .

وقال : البخاري

حدثنا إبراهيم عن حمزة حدثني ابن أبي حازم عن يزيد يعني ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة رضى الله عنه "عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومه " .

ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدراوردي والنسائي عن محمد عن عبدالعزيز بن أبي حازم كلاهما عن يزيد بن الهادي به

وقال : البخاري

حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبدالله قال : "ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليله ثم أصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال : في أذنه " .

ورواه مسلم عن عثمان واسحاق كلاهما عن جرير به وأخرجه البخاري أيضا والنسائي وابن ماجه من حديث منصور بن المعتمر به

وقال : البخاري

حدثنا محمد بن يوسف أنبأنا الأوزاعي عن يحيى ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضى أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول : اذكر كذا وكذا حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعا فإذا لم يدر أثلاثا صلى أم أربعا سجد سجدتي السهو " .   **رواه منفردا به من هذا الوجه**

وقال : الإمام أحمد

حدثنا أسود بن عامر حدثنا جعفر يعني الأحمر عن عطاء بن السائب عن أنس رضى الله عنه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم في الخلل " .

وقال : الإمام أحمد

حدثنا أبان حدثنا قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : راصوا الصفوف وقاربوا بينها وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفس محمد بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف " .

وقال : البخاري

حدثنا أبو معمر حدثنا عبدالوارث حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبي صالح عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر بين يدي أحدكم شيء فليمنعه فإن أبى فليمنعه فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان " .
ورواه أيضا مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المغيرة عن
حميد بن هلال به

وقال : الإمام أحمد

حدثنا أبو أحمد حدثنا بشير بن معبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي فذهبت أمر بين يديه فردني ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري رضى الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ فإلتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال : لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل " .
وروى أبو داود منه فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن أبي سريج عن أبي أحمد محمد بن عبدالله بن محمد بن الزبير به

وقال : البخاري

حدثنا محمود حدثنا شبابة حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة فقال :" إن الشيطان عرض لي فسد لقطع الصلاة علي فأمكنني الله منه " .فذكر الحديث
وقد رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به مطولا
ولفظ البخاري عند تفسير **قوله : تعالى** إخبارا عن سليمان عليه السلام أنه قال : (**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**)

ص 35

من حديث روح وغندر عن شعبه عن محمد بن زياد عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال " إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة أو كلمة نحوها ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه فاردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول : أخي سليمان (**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**) **ص 35**

قال : روح فرده خاسئا

وروى مسلم

من حديث أبي إدريس عن أبي الدرداءرضى الله عنه قال : "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فسمعناه يقول : أعوذ بالله منك ثم قال : ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله قد سمعناك تقول : في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله : قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك فقال : إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمله في وجهي فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت :

ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة ".

فصل

الحذر من مكائد الشيطان

قال : تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) **فاطر 5**

يعني الشيطان

وقال : تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) **فاطر 6**

فالشيطان لا يألو الإنسان خبالا جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتابا في ذلك سماه مصائد الشيطان وفيه فوائد جمة

وفي سنن أبي داود

"إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت " .

وروينا في بعض الأخبار ـ أنه قال : يا رب وعزك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال : الله تعالى وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني

وقال : الله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) **البقرة 268**

فوعد الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل

وقد روى الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود رضى الله عنه

قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم إن للشيطان للمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) **البقرة 268**

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة "أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه وذكرنا في فضل آية الكرسي أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح " .

وقال : البخاري

حدثنا عبدالله بن يوسف أنبأنا مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال : من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك " .

وأخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث مالك

وقال : الترمذي حسن صحيح

وقال : البخاري
أنبأنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : "صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب ". **تفرد به من هذا الوجه**
وقال : البخاري
حدثنا عاصم بن علي حدثنا بن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا قال : ها ضحك الشيطان " .
ورواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي
وصححه النسائي من حديث ابن أبي ذئب به وفي لفظ " إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل " .
وقال : الإمام أحمد
حدثنا عبدالرزاق أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب " .
ورواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به
وقال : البخاري
حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال : قالت : عائشة رضى الله عنها "سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن إلتفات الرجل في الصلاة فقال : هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم " .
وكذا رواه أبو داود والنسائي من رواية أشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي عن أبيه عن مسروق به
وروى البخاري
من حديث الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير حدثني عبدالله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلما يخافه فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره " .
وقال : الإمام أحمد
حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار " . **أخرجاه من حديث عبدالرزاق**
وقال : الله تعالى (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) **الملك 5**
وقال : تعالى
(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) **الصافات 6- 10**

وقال : تعالى (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ) **الحجر 16 – 18**

وقال : تعالى (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) **الشعراء 210 -212**

وقال : تعالى إخبارا عن الجان

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا) **الجن 8 – 9**

وقال : البخاري وقال : الليث

حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة ".

هكذا رواه في صفة إبليس معلقا عن الليث به ورواه في صفة الملائكة عن سعيد بن أبي مريم عن الليث عن عبيدالله بن أبي جعفر عن محمد بن عبدالرحمن أبي الأسود عن عروة عن عائشة بنحوه تفرد بهذين الطريقين دون مسلم

وروى البخاري ومسلم

من حديث الزهري عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه رضى الله عنه قال : قالت : عائشة رضى الله عنها " سأل ناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال : إنهم ليسوا بشيء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحيانا بشيء فيكون حقا فقال : صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة " . **لفظ البخاري**

وقال : البخاري

حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول : " إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله : كأنه سلسلة على صفوان (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) **سبأ 23**

فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال : لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء " . **انفرد به البخاري**

وروى مسلم

من حديث الزهري عن علي بن الحسين زين العابدين عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رجال من الأنصار عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا

وقال : تعالى

(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) **الزخرف 36 – 38**

وقال : تعالى (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) **فصلت 25**

وقال : تعالى (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) **ق 27 – 29**

وقال : تعالى

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ) **الأنعام 112 – 113**

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه واسمه رافع عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : وإياك يا رسول الله قال : وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير " .

وقال : الإمام أحمد

حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه واسمه حصين بن جندب وهو أبو ظبيان الجنبي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال : "رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الشياطين قالوا : وأنت يا رسول الله قال : نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم" .

تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح

وقال : الإمام أحمد

حدثنا هارون حدثنا عبدالله بن وهب أخبرني أبو صخر عن يزيد بن قسيط حدثه أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " خرج من عندها ليلا قالت : فغرت عليه قالت : فجاء فرأى ما أصنع فقال :مالك يا عائشة أغرت قالت : فقلت : ومالي أن لا يغار مثلي على مثلك فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أفأخذك شيطانك قالت : يا رسول الله أو معي شيطان قال : نعم قلت : ومع كل إنسان قال : نعم قلت : ومعك يا رسول الله قال نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم " .

وهكذا رواه مسلم عن هارون وهو ابن سعيد الأيلي بإسناده نحوه

وقال : الإمام أحمد

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة رضى الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن المؤمن لينصي شيطانه كما ينصي أحدكم بعيره في السفر" . **تفرد به أحمد من هذا الوجه**

ومعنى - لينصي شيطانه ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه

وقوله : تعالى إخبارا عن إبليس (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ **)** **الأعراف 17**

قال : الإمام أحمد

حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل هو عبدالله بن عقيل الثقفي حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتدر دينك ودين آبائك قال : فعصاه وأسلم قال : وقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال فقال : أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال : فعصاه وجاهد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك منهم كان حقا على الله أن يدخله الجنة وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة وإن كان غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة وان وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة " .

وقال : الإمام أحمد

حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبدالله بن عمررضى الله عنه يقول : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعود بعظمتك أن أغتال من تحتي " .

قال : وكيع يعني الخسف

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به

وقال : الحاكم صحيح الإسناد

الجزء الثانى

آيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثانى للإمام / شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية

الحمد لله الذى سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا وأوضح لهم طريق الهداية وجعل اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم عليها دليلا واتخذهم عبيدا له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلا وكتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا والحمد لله الذى أقام فى أزمنة الفترات من يقوم ببيان سنن المرسلين كفيلا واختص هذه الأمة بأن لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قيلا فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ومن مبتدع فى دين الله بشهب الحق قد رموه جهادا فى الله وابتغاء مرضاته وبيان لحججه على العالمين وبيناته وطلبا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته فحاربوا فى الله من خرج عن دينه القويم وصراطه المستقيم الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا أعنة الفتنة وخالفوا الكتاب أحمده وهو المحمود على ما قدره وقضاه وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب ولا إله سواه وأستهديه سبيل الذين أنعم عليهم ممن اختاره لقبول الحق وارتضاه وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه وأستغفره من الذنوب التى تحول بين القلب وهداه وأعوذ به من شر نفسى وسيئات عملى استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه وأعتصم به من الأهواء المردية والبدع المضلة فما خاب من أصبح به معتصما وبحماه نزيلا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أشهد بها مع الشاهدين وأتحملها عن الجاحدين وأدخرها عند الله تعالى عدة ليوم الدين وأشهد أن الحلال ما حلله الله تعالى والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وأن الساعة لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وأشهد أن محمدا عبد ه ورسوله صلى الله عليه وسلم عبده المصطفى ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى أرسله رحمة للعالمين وحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبيل وافترض على العباد طاعته وتعظيمه وتوقيره وتبجيله والقيام بحقوقه وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا عن طريقه فشرح له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره وجعل الذل والصغار على من خالف أمره هدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة وبصر به من العمى وأرشد به من الغى وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله لا يرده عنه

راد داعيا إلـى الله لا يصـده عنـه صـاد إلـى أن أشـرقت برسـالته الأرض بعـد ظلماتهـا وتألفت به القلوب بعد شتاتها وسادت دعوته مسـير الشـمس فـى أقطارهـا وبلـغ مـا بلـغ الليل والنهار فلما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على عباده الكؤمنين استأثر بـه ونقلـه إلى الرفيق الأعلى من كرامته والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته ففارق الأمـة وقـد تركها على المحجة البيضاء التى لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين فصلى الله عليـه وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة دائمة بدوام السماوات والأرضين مقيمـة علـيهم أبـدا لا تروم انتقالا عنهم ولا تحويلا .

فصل

معنى الفكر

الفكر : هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة

ومثال : ذلك إذا احضر في قلبه العاجلة وعيشها وتعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين أثمر له ذلك علما ثالثا وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بايثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة ثم له في معرفة الآخرة حالتان : -

أحداهما - أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به ولم يفض قلبه إلى مكافحة حقيقة الآخرة

وهذا حال أكثر الناس فيتجاذبه داعيان أحدهما داعي العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده لأنه مشاهد له محسوس وداعي الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين به ولا كافحه حقيقته العلمية

فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوما لمظنون أومتحققا لموهوم فلسان الحال ينادي عليه لا أدع ذرة منقودة لدرة موعودة وهذه الآفة هي التي منعت النفوس من الإستعداد للآخرة وان يسعى لها سعيها وهي من ضعف العلم بها وتيقنها وإلا فمع الجزم التام الذي لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها

ولهذا - لو قدم لرجل طعام في غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل : له إنه مسموم فإنه لا يقدم عليه لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو في المضرة على لذة أكله

فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة ماذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب وعدم إستقرارها فيه

وكذلك - إذا كان سائرا في طريق فقيل له إن بها قطاعا ولصوصا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين: -

الحالة الأولة : إما أن لا يصدق المخبر وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والإنتصار عليهم وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقا لا يتمارى فيه وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم فإنه لا يسلكها ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك إستعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه ابدا

الحالة الثانية : أن يتيقن ويجزم جزما لا شك فيه بأن له دارا غير هذه الدار ومعادا له خلق وأن هذه الدار طريق الى ذلك المعاد ومنزل من منازل السائرين إليه ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل إصبعه في اليم ثم ينزعها فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة فيثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والإستعداد التام لها وأن يسعى لها سعيها وهذا يسعى تفكرا وتذكرا ونظرا وتأملا وإعتبارا وتدبرا وإستبصارا

وهذه - معان متقاربة تجتمع في شيء وتتفرق في آخر ويسمى تفكرا لأنه إستعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده ويسمى تذكرا لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد

ذهوله وغيبته عنه ومنه **قولـه : تعـالى** (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)) **الأعراف 201**

ويسمى نظرا لأنه إلتفات بالقلب إلى المنظور فيه ويسمى تأملا لأنه مراجعة للنظر كرة بعدكرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه ويسمى إعتبارا وهو إفتعال من العبـور لأنـه يعبـر منه الى غيره فيعبر من ذلك الـذي قد فكـر فيـه إلـى معرفـة ثالثـة وهـي المقصـود مـن الإعتبار

ولـهذا ـ يسمى عبرة وهي إيذانا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالا لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به **وقال : الله تعالى** (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) **النازعات 26**

وقال : تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) **النور 44**

ويسمى تدبرا لأنه نظر في إدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول **وقـال : تعـالى** (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) . **النساء 82**
.

وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مرة

ولـهذا ـ جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين وسمى إستبصـارا وهـو إسـتفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة وكل من التذكر والتفكر لـه فائـدة غير فائدة الآخر

فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفـه ليرسـخ فيـه ويثبـت ولا ينمحـي فيـذهب أثره من القلب جملة والتفكر يفيد تكثيـر العلـم وإسـتجلاب مـا لـيس حاصـلا عنـد القلـب فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه

ولـهذا ـ قال : الحسن ما زال أهـل العلـم يعـودون بالتـذكر علـى التفكـر وبـالتفكر علـى التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة

فالتفكر والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته ومذاكرته تلقيحه

كما قال : بعض السلف ملاقاة الرجال تلقيح لالبابها

فالمذاكرة بها لقاح العقل فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر فإنه لا بـد مـن تفكـر وعلم يكون نتيجته الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فـإن كـل مـن عمـل شـيئا مـن المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة وينصـبغ بصـبغة مـن علمـه وتلـك الحـال توجب له إرادة وتلك الإرادة توجب وقوع العمـل فهـا هنـا خمسـة أمـور الفكـر وثمرتـه العلم وثمرتهما الحالة التي تحدث للقلب وثمرة ذلك الإرادة وثمرتها العلم

فالفكر ـ إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا يكشف لك عن فضل التفكـر وشـرفه وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها لـه حتـى قيـل : تفكـر سـاعة خيـر مـن عبـادة سـنة

فـالفكر : هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المكاره إلى المحاب ومـن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا إلـى فضـاء الآخـرة ومـن ضـيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ومن مـرض الشـهوة والإخـلاد إلـى هـذه الـدار إلـى شـفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور ومن مصيبة العمى والصمم والـبكم إلـى نعمـة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن أمراض الشبهات إلـى بـرد اليقـين وثلـج الصدور

وبالجملة ـ فأصل كل طاعة إنما هي الفكر وكذلك اصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية فيتولد منه الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيم هييء له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعا وهذا كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا فارغا فتمكنا

فان ـ قيل : فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره في الخير والشر فما متعلقه الذي ينبغي أن يوقع عليه ويجرى فيه فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذي يقع الفكر فيه وإلا ففكر بغير متفكر فيه محال

قيل : مجرى الفكر ومتعلقه أربعة أمور : ـ

أحدها : غاية محبوبة مرادة الحصول

الثاني : طريق موصلة إلى تلك الغاية

الثالث : مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول

الرابع : الطريق المفضي إليها الموقع عليها فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة

وأي فكر ـ تخطاها فهو من الأفكار الردية والخيالات والأماني الباطلة كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر وهو يأخذ ويعطي وينعم ويحرم وكما يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك وهو يتصرف في البلاد والرعية ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية التي من جنس أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل

فالأفكار الردية هي قوت الأنفس الخسيسة التي هي في غاية الدناءة فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ثم لا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتتزايد حتى توجب لها آثارا ردية ووساوس وأمراضا بطيئة الزوال

وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها فله أيضا محلان ومنزلان : ـ

احدهما : هذه الدار والآخر دار القرار فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة تبين الرابح من المغبون وخسر هنالك المبطلون وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها

ونحن نفصل ذلك بعون الله وفضله فنقول : كل طالب لشيء فهو محب له مؤثر لقربه ساع في طريق تحصيله متوصل إليه بجهده وهذا يوجب له تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التي يحب لاجلها وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح والسرور ففكره في حال محبوبه دائر بين الجمال والإجمال والحسن والإحسان فكلما قويت محبته إزداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى يستغرق أجزاء القلب فلا يبقى فيه فضل لغيره بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله في حضرة محبوبه

فإن كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له ولا يحب غيره إلا تبعا لمحبته فهو أسعد المحبين به وقد وضع الحب موضعه وتهيأت نفسه لكمالها

الذي خلقت له والذي لا كمال لها بدونه بوجه وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية التي تفنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها فقد وضع المحبة في غير موضعها وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها وإذا عرف هذا عرف أن تعلق المحبة بغير الإله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه فأفكفاره المتعلقة بها كلها باطلة وهي مضرة عليه في حياته وبعدموته والمحب الذي قد ملك المحبوب افكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ثم فكره في محبوبه لا يخرج عن حالتين : -

أحداهما - فكرته في جماله وأوصافه

والثانية - فكرته في أفعاله وإحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته

وأن تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضا عن حالتين : -

الأولى : إما أن نفكر في أوصافه المسخوطة التي يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويسقطه من عينه فهو دائما يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها

والثانية : أن يفكر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها

فالفكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الأخرتان توجب محبة محبوبه له وإقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإيثاره على غيره

فالمحبة التامة - مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة فالفكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود سبحانه وأفعاله والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتها وما يمنع من السير فيها إليه فتفكره في صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور : -

أحدها : أن هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا

الثاني : هل العبد متصف به أم لا

الثالث : إذا كان متصفا به فما طريق دفعه والعافية منه وإن لم يكن متصفا به فما طريق حفظ الصحة بوقائه على العافية والإحتراز منه

وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور : -

أحدها : أن هذه الصفة هل هي محبوبة لله مرضية له أم لا

الثاني : هل العبد متصف بها أم لا

الثالث : أنه إذا كان متصفا بها فما طريق حفظها ودوامها وإن لم يكن متصفا بها فما طريق إجتلائها والتخلق بها ثم فكرته في الأفعال على هذين الوجهين أيضا سواء ومجاري هذه الافكار ومواقعها كثيرة جدا لا تكاد تنضبط وأن يحصرها ستة أجناس الطاعات الظاهرة والباطنة والمعاصي الظاهرة والباطنة والصفات والأخلاق الحميدة والأخلاق والصفات الذميمة

فهذه - مجاري الفكرة في صفات نفسه وأفعالها

وأما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه

فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفروالتوحيد والشرك والإقرار والتعطيل وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام ومجاري هذه الفكرة تدبر كلامه وما تعرف به سبحانه الى عباده على السنة رسله من أسمائه وصفاته

وأفعاله وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتدبر آياته وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصها على عباده وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلهم الحق المبين الذي لا تنبغي العبادة إلا له ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم وأنه العزيز الحكيم وأنه الفعال لما يريد وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلما وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شيء منها عن ذلك وهذه الثمرة لا سبيل الى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله وإلى هذين الاصلين ندب عباده في القرآن **فقال : تعالى في الأصل الأول**(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) **محمد 24**

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) **المؤمنون 68**

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) **ص 29**

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) **يوسف 2**

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) **فصلت 3**

وقال : تعالى في الاصل الثاني

(قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) **يونس 101**
.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) **آل عمران 190 – 191**

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَوَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَوَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **الجاثية 3 – 5**

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) **الروم 9**

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَوَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَوَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَوَلَهُ مَن فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۞وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الروم 20 – 27

ونوع سبحانه الاآيات في هذه السور فجعل خلق السماوات والأرض وإختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لإشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلآلته وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون

فإن - سكون الرجل إلى إمرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة

فمتى - نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دلة فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وإرتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم

فهذه - الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه وإستدل بهذه الآية عليه وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الارض به آيات لقوم يعقلون

فإن - هذه أمور مرتبة بالأبصار مشاهدة بالحس

فإذا - نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله إستدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته إمكان ما اخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعدموتها

وهذه - أمور لاتدرك إلا ببصر القلب وهو العقل فإن الحس دل على الآية والعقل دل على ما جعلت له آية فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل **فقال : تعالى** (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **الروم 24**

فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور

وبالجملة - فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر

فإنه - جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لإشتغلوا بها عن كل ما سواها

فإذا - قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاجا إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن

وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي **قوله : تعالى** (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) **المائدة 118**

فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب

ولهذا - قال : ابن مسعود لا تهذوا القرآن هذا الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لا يكن هم أحدكم آخر السورة

وروى أبو أيوب عن أبي حمزة قال : قلت : لابن عباس رضى الله عنهما إني سريع القراءة إني أقرأ القرآن في ثلاث قال : لأن اقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ

والتفكر في القرآن نوعان : -

تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه

الأول : تفكر في الدليل القرآني

الثاني : تفكر في الدليل العياني الأول

ففكر في آياته المسموعة والثاني تفكر في آياته المشهودة ولهذا انزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه

قال : الحسن البصري أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا .

فصل

إذا تأملت ما دعى الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه

أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه

فبهذا - تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه يستدل بها على غيرها فمن ذلك خلق الإنسان وقدندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه **كقوله : تعالى**

(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) **الطارق 5**

وقوله : تعالى (وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) **الذاريات 21**

وقال : تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ) **الحج 5**

وقال : تعالى (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ) **القيامة 36 – 40**

وقال:تعالى (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) **المرسلات 20 – 23**

وقال : تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) **يس 77**
وقال : تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)
المؤمنون 12 – 14

وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلآئل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره **قال : الله تعالى**

(قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ) **عبس 17 – 21**

فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث

فانظر ـ الأن إلى النطفة بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف إستخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الإنقياد على ضيق طرقها وإختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها

وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الإجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه

وكيف قدر إجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولا برد بحمده ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعله عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها

وانظر ـ كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الإنحلال وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهي محفوظة به وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائرالمنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه

ثم انظر الحكمة البالغة ـ في تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له وكيف قدرها ربه وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير

والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها في بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط **وكيف** إختلفت أشكالها بإختلاف منافعها كالأضراس فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظما واحدا بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه

وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد ان يحرك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه

وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الإبصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعلهمن العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) **المؤمنون 14**

فانظر - كيف حسن شكل العينين وهيئتها ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغبار ويكنانهما من البارد المؤذي والحار المؤذي ثم غرس في أطراف تلك الأجفان الأهداب جمالا وزينة ولمنافع اخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق ما بين السماء والارض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من الكواكب **وقد أودع سبحانه** هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السماوات مع إتساع اكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع وخلق الأذن أحسن خلقه وأبلغها في حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه وجعل فيها غضونا وتجاويف وإعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ

ومن حكمة ذلك - أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لإمساكه وفيه أيضا حكم غير ذلك

ثم إقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في

رجوعه وجعل ماء العينين ملحا ليحفظها فإنها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه إذ لو كان على غير هذه الصفة لاحالها الى طبيعته كما أن من عرض لفمه المرارة إستمر طعم الأشياء التي ليست بمرة كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

ونصب سبحانه ـ قصبة الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل في داخله من الإعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه

واقتضت حكمته ـ أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل في وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى الأخر للتنفس وإما ان يجرى فيهما فينقسم فلا ينسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس

وأيضا ـ فإنه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين إقتضت الحكمة تعددهما فإنه ربما أصيبت أحداهما أوعرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين في الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذي هو احد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد

واقتضت حكمته سبحانه ـ أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديا منه الى الخارج جعل له سترا مصونا لعدم الفائدة في إبرازه لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب

وأيضا ـ فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر

وأيضا ـ فإنه من الطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صارعرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له

من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هن جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وما جاوره وسطا

ولهذا - كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة

واقتضت حكمته - أن جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فإختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرا

ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والإشتباه العارض بين الأصوات كالإشتباه العارض بين الصور

وزين سبحانه - الرأس بالشعر وجعله لباسا له لإحتياجه إليه وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفاف العينين بالأهداب

وزين الوجه أيضا - باللحية وجعلها كمالا ووقارا ومهابة لرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة

وكذلك خلقه سبحانه - لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل والإبهام بإثنتين ووضع الأصابع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال

ولو اجتمع الأولون والأخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقا واحدا كالصحيفة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحة وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك

فإن بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رؤسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أقل الاشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكة لإشتدت حاجته إليه ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى

موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة

ثم انظر- إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة لأنها محمولة

ثم انظر - كيف جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها في بعض هي مجمع أضلاعه والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع

وانظر - كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الإنسان يحتاج الى قلعة ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره

فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين

ثم أنه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها اسرها وجعلها كالأوتاد تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهي مختلفة في الغلظ والدقة والطول والقصر والإستقامة والإنحناء بحسب إختلاف مواضعها ومحالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها لو نقضت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين

وهكذا - لكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كالآلآت التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين فويل للمكذبين وبعدا للجاحدين

ومن عجائب خلقه أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن نافذا بعضها إلى بعض خزانة في مقدمه وخزانة في وسطه وخزانة في آخره وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل

ومن عجائب خلقه ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والامعاء والمثانة وسائر ما في بطنه من الآلآت العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع

فأما القلب فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر في الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والإحتمال والحب والإرادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال

فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات فإن رأت شيئا أدته إليه ولشدة الإرتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه
كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه
ولهذا - كثيرا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله : تعالى (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) **الإسراء 36**
وقوله : تعالى
(وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) **الأحقاف 26**
وقوله : تعالى (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) **البقرة 18**
وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر **كقوله : تعالى** (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) **الأنعام 110**
وقوله : تعالى في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم
(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) **النجم 11**
ثم قال : تعالى (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ) **النجم 17**
وكذلك الأذن هي رسوله المؤدى إليه وكذلك اللسان ترجمانه
وبالجملة - فسائر الأعضاء خدمه وجنوده وقال : النبي " صلى الله عليه وسلم ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب " .
وقال : أبو هريرة رضى الله عنه
القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده .
وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء حرارة بل هو منبع الحرارة
وأما الدماغ وهو المخ فإنه جعل باردا واختلف في حكمة ذاك
فقالت : طائفة إنما كان الدماغ بارد التبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلى الإعتدال
وردت طائفة هذا وقالت : لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب بل كان ينبغي ان يحيط به كالرئة أو يكون قريبا منه في الصدر ليكسر حرارته
قالت : الفرقة الاولى – بعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته .

وتوسطت فرقة أخرى وقالت : بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للذهن

ولهذا ـ كان الذهن يحتاج الى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل

لذلك ـ يكون جودة الفكر والتذكر وإستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته

ولذلك ـ لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا في ذلك صالحا له ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية

وهذا ـ بحث متصل بقاعدة أخرى وهي أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ

فقالت : طائفة مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق

قالوا : وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي الى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواس

قالوا : فالعين إذا أبصرت شيئا أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا احس صوتا أداه إلى القلب

وكذلك كل حاسة ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا.

فقالوا : إن قيل : كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الإمتزاج يمده عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى. ؟

وأجابوا ـ عن ذلك بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة فما من عرق ولا عضو إلا وله إتصال بالقلب إتصالا قريبا أو بعيدا

قالوا : وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى

ولهذا ـ كان الراي الصحيح أنه أول الأعضاء تكوينا

قالوا : ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون

وقالوا : بل العقل في الرأس فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقرآن قد دل على هذا **بقوله : تعالى**

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) **الحج 46**

وقال : تعالى

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ق 37

ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب ونازعهم في ذلك طائفة أخرى

وقالوا : مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق

وقالوا : هذا كذب على الخلقة

والصواب - التوسط بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلاعلى قبولها واستعداها وامداد القلب لا على مجار وأعصاب

وبهذا يزول الإلتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله اعلم وبه التوفيق للصواب .

والمقصود - التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال أو يجرى فيه المقال

وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه

وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط في مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغارا ثم طاحون يطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله إلى المعدة فهي خزانته وموضع إجتماعه ولها بابان باب أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه تفله والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه والأسفل منطبق دائما ليستقر الطعام في موضعه

فإذا انتهى الهضم فإن ذلك الباب ينفتح الى إنقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والأعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل إلى المعدة متكيمسا فإذا استقر فيها إنماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به

ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالحصا وغيره حتى يتركه مائعا فإذا أذابته علا صفوه إلى فوق ورس كدره إلى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداه وقبوله فيبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأخفه إلى الأرواح فيبعث إلى البصر بصرا وإلى السمع سمعا وإلى الشم شما وإلى كل حاسة بحسبها

فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه الى الدماغ ما يناسبه في اللطافة والإعتدال ثم ينبعث من الباقي إلى الأعضاء في تلك المجاري بحسبها وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظفار ما يغذيها ويحفظها فيكون الغذاء داخلا إلى المعدة من طرق ومجار وخارجا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار هذا وارد إليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة

ولما كان الغذاء إذا استحال في المعدة إستحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغما اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفا ينصب إليه

ويجتمع فيه ولا ينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله فوضع المرارة مصبا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للمرة السوداء والكبد تمتص أشرف ما في ذلك وهو الدم ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل إلى كل واحد من الشعور والأعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه

ثم إذا نظرت إلى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة في أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجاب كقوة سمعه وبصره وشمه وزوقه ولمسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه وغير ذلك من القوى المتعلقة بالإدراك والإرادة

وكذلك ـ القوى المتصرفة في غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافعة له إلى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه إلى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة

فصل

ارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا

وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا من اصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين

فمن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السماوات وعلوها وسعتها وإستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات **قال : الله تعالى**(أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) **النازعات 27 – 28**

وقال : تعالى

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **البقرة 164**

فبدأ بذكر خلق السماوات **وقال : تعالى** (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) **آل عمران 190**

وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السماوات بالإضافة إلى السماوات كقطرة في بحر

ولهذا ـ قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها وإما إقساما بها وإما دعاء إلى النظر فيها وإما إرشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها وإما إستدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيمة وإما إستدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله الا هو وإما إستدلالا منه بحسنها وإستوائها وإلتئام اجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته

وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم في القرآن بها **كقوله : تعالى** (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) **البروج 1**

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) **الطارق 1**

(وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا) **الشمس 5**

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) **الطارق 11**

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) **الشمس 1**

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) **النجم 1**

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)) **التكوير 15**

وهي الكواكب التي تكون خنسا عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فأقسم بها في أحوالها الثلاثة ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلآلة كان إقسامه به أكثر من غيره

ولهذا يعظم هذا القسم **كقوله : تعالى** (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) **الواقعة 75 – 76**

وأظهر القولين : أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف اليها

وأيضا ـ فإنه لم تجر عادته سبحانه بإستعمال النجوم في آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عادته بإستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن

وأيضا ـ فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم في قوله تعالى (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) **النجم 1**

وايضا ـ فإن هذا قول جمهور أهل التفسير

وايضا ـ فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده هذه طريقة القرآن

قال : الله تعالى (ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) **ص 1**

(يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) **يس 1 – 2**

(ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) **ق 1**

(حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) الدخان 1 – 2

ونظائره

والمقصود ـ أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاتهبما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أثنى سبحانه في كتابه على المتفكرين في خلق السماوات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال : تعالى

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) **الأنبياء 32**

وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء
قال : الله تعالى (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) النبأ 12
وقال : تعالى
(أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) النازعات 27 – 28
وقال : تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ) الأنبياء 32
فانظر ـ إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم إرتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف إبتدأ خلقه من بخار إرتفع من الماء وهو الدخان فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد
لقد ـ تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلآلآت وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي بينة وأن الله يسمع عليم فارجع البصر إلى السماء
وانظر ـ فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها وإختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها بلت جري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها
وانظر - إلى كثرت كواكبها وإختلاف ألوانها ومقاديرها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البيضا وبعضها إلى اللون الرصاصي
ثم انظر ـ إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة
وكيف قدر لها السميع العليم سفرين متباعدين أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثاني سفرها هابطة إلى حضيضها تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر إختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع
فإذا ـ إنخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء إشتد القيظ وإذا كانت بين المسافتين إعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها
وانظر ـ إلى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئا فشيئا كل ليلة حتى ينتهي إلى ابداره وكماله وتمامه ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعبادتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنين وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر التي لا يحصيها إلا الله
وبالجملة ـ فما من كوكب من الكواكب إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ثم في مقداره ثم في شكله ولونه ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه

من الكوكب الذي يليه وبعده منه وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك وإختلافها وتفاوت إما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعا وما خلقت له وأين نسبة ذلك إلى عظم السماوات وكواكبها وآياتها

وقد إتفق أرباب الهيئة - على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة والكواكب التي نراها كثير منها أصغرها بقدر الأرض وبهذا يعرف إرتفاعها وبعدها وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه الذي رواه الترمذي

" إن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك " .

وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر وذلك بعد لحظة واحدة لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلا ثم سار في اللحظة من موضع الموضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات

وهكذا - يسير على الدوام والعبد غافل عنه وعن آياته

وقال : بعضهم إذا تلفظت بقولك لا نعم فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ثم إنه سبحانه أمسك السماوات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها **قال : تعالى** (**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**) الرعد **2**

وقال : تعالى (**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**) **لقمان 10 - 11**

فصل

النظر في هذه الآيات

النظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان : -
الأول : نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر
الثاني : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في اقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقه ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها فينزل الأمر باحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على إختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة الملهوف وإعانة لعاجز وإنتقام من ظالم وكف العدوان
فهي - مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على إختلافها وتباينها وإتحاد وقتها ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا لهيبته خاشعا لعظمته ولعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد
فهذا - سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فيا له من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمته العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب .

فصل

إذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها

وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده وجعل فيه أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفاتا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات

وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها

فقال : تعالى (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) **الذاريات 48**

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) **غافر 64**

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) **البقرة 22**

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) **الغاشية 17 - 20**

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ) **الجاثية 3**

وهذا كثير في القرآن

فانظر - إليها وهي ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء إهتزت فتحركت وربت فارتفعت وأخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج فاخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر بهيج للناظرين كريم للمتناولين فأخرجت الأقوات على إختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية ومراعي الدواب والطير

ثم انظر - قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحدا فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحد والأم واحدة كما

قال : تعالى (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **الرعد 4**

فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم وكيف كان حملها من لقاح واحد صنع (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) **النمل 88**

لا إله إلا هو ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده وهداهم إلى التفكير فيه

قال : الله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) **فصلت 39**

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ) **الحج 7**

فجعل النظر - في هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلا على هذه النتائج الخمس مستلزما للعلم بها

ثم انظر - كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف رفعها وجعلها أصلب جزء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الأمطار والرياح بل اتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس إلى إستخراج تلك المعادن منها والهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلي والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها

ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شيء منه ولا قدرة عليه ومن آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك بحس اللمس عند هبوبه يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجرى بين السماء والأرض والطير مختلفة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر

فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقع ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر والعقيم والصرصر وهما في البر وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيما وأودعه عذابا اليما وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرا ونحسا وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه وهي مختلفة في مهابها

فمنها - صبا ودبور وجنوب وشمال وفي منفعتها وتاثيرها أعظم إختلاف فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده **وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه**

ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لإختلاف منافعها وما يحدث منها فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحمله على متونها وريح تغذى النبات

ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ويبقى لينها ورحمتها فرياح الرحمة متعددة

وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ما ترسل باهلاكه فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه

وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر

وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد

كقوله : تعالى

(**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**) **يونس 22**

فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد فإذا إختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها

فالمقصود - منها في البحر خلاف المقصود منها في البر إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء فأفردت هنا وجمعت في البر
ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والباس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه
فانظر - إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلا وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فإمتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوي الشديد
وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه
وكذلك - كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه لأن الهواء يمتنع من الغوس في الماء فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة
فتأمل - كيف إستجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق
وهذا - كالذي يهوى في قليب فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع عن السقوط في القليب فينجو بتعلقه به
فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسيفا ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ثم تلقحه الريح وهي التي سماها سبحانه لواقح ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه فإذا علاها واستوى عليها أهراق ماءه عيها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه اقلع عنها وفارقها فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح
وفي الترمذي وغيره أن النبي " صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال : هذه روايا الارض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه " .
فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التي عليها ميرتهم
وكان الحسن رضى الله عنه إذا رأى السحاب قال : في هذا والله رزقكم ولكنكم تحرموه بخطاياكم وذنوبكم
وفي الصحيح
" عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا في سحابة إسق حديقة فلان فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها فقال : ما اسمك يا عبد الله قال فلان للإسم الذي سمعه في السحابة " .
وبالجملة - فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى ان يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص إقتضته حكمته ورحمته فيرش

السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمزج بها بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره

فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه

فتأمل - كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا ثم كيف أودعه في الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات

فهذا - النبات يغذي وهذا يصلح الغذاء وهذا ينفذه وهذا يضعف وهذا سم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من المرض وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء وإستحال إليها وهذا يدفع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يهيج الدم وهذا يسكنه وهذا ينوم وهذا يمنع النوم وهذا يفرح وهذا يجلب الغنم إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها

وانظر - إلى مجاري الماء في تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقه كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف في تلك المجاري بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق إلى غاية لا ينالها البصر

ثم انظر - إلى تكون حمل الشجرة ونقلته من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجاب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين بينا تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها إذ كاساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك السكوة وكساها من الورق كسوة هي أثبت من الأولى ثم أطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجب به من الحر والبرد والآفات ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها في تلك العروق والمجاري فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان أمه ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى إستوت وكملت وتناهى إدراكها فأخرج ذلك الجني اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء هذا وكم لله من آية في كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لايبصرونه تفنى الأعمار دون الإحاطة بها وجميع تفاصيلها

فصل

ومن آياته سبحانه تعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته

وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه **كقوله : تعالى** (**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**) **فصلت 37**

وقوله : تعالى
(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) **الفرقان 47**
وقوله : عزوجل
(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)   **الأنبياء 33**
وقوله : عز وجل (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)   **غافر 61**
وهذا كثير في القرآن
فانظر - إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلآلآت على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات الى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب حتى إذا اخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فإنتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادةومألفا منعها من الإعتبار به والإستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الحلق بعد موتهم ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه ويوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهذا أيضا من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها لمن هو واقف في الماء إلى حلقه وهويستغيث من العطش وينكر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع اليه ويسأل

فصل

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض

التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء وهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع إقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الإعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك العيش الحيوان الأرضي في الأرض
وهذا - حق ولكنه يوجب الإعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا محيص عنه
وفي مسند الإمام أحمد
" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم " .
وهذا أحد الأقوال في **قوله : عز وجل** (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) **الطور 6**

إنه المحبوس حكاه ابن عطية
وغيره قالوا : ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه
وكذلك ـ لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض
واذا تأملت ـ عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على إختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها حتى إن فيها حيوانا أمثال الجبال لا يقوم له شيء وحتى إن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا اوقدت فتتحرك فيعلم إنه حيوان
وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر
أمثاله حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكنها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي
وتأمل ـ كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائش التي يقذفها البحر وتستخرج منه
ثم انظر ـ إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائها فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء **قال : الله تعالى**
(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) **الشورى 32 – 33**
وقال : الله تعالى (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) **النحل 14**
فما أعظمها من آية وأبينها من دلآلة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرا وبالجملة فعجائب البحر وآياته اعظم وأكثر من أن يحصيها الا الله سبحانه
وقال : الله تعالى (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) **الحاقة 11 – 12**

فصل

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان

على إختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجليه ومنه الماشي على أربع ومنه ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذو المخالب ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم

والغراب ومنه ما سلاحه الأسنان ومنه ما سلاحه الصياصي وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالاسد فإن سلاحه قوته ومنه ما سلاحه في ذرقه وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه

ونحن نذكر هنا فصولا منثورة من هذا الباب مختصرة وإن تضمنت بعض التكرار وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهم فصول الكتاب بل هو لب هذا القسم الأول

ولهذا يكرر في القرآن ذكر آياته ويعيدها ويبديها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى فهو من اجل مقاصد القرآن قال : الله تعالى (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) **يونس 101**

وقال : تعالى

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) آل عمران 190

وقال : تعالى (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

الغاشية 17 - 20

وقال : الله تعالى

(أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) **الأعراف 185**

وقال : تعالى

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) **الأنعام 95 – 99**

فأمر سبحانه ـ بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه يقال : أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهي لآيات لقوم يؤمنون

وقال : بعض السلف حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا اليها ثم تلي **قوله : تعالى** (وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ

وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
الأنعام 99

ولو أردنا نستوعب ما في آيات الله المشهورة من العجائب والدلآلآت الشاهدة لله بأن الله الذي لا إله إلا هو الذي ليس كمثله شيء وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والأخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك

وهذا حين الشروع في الفصول .

فصل

تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها

على أحسن نظام وأدلة على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلآته ومصالحه وكل ما يحتاج إليه فالسماء سقفه المرفوع عليه والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن والشمس والقمر سرجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمنتقل في طرق هذه الدار والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له وضروب النبات مهيأ لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة والآلآت ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه

فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم وجعل الإنسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره

ففي هذا أعظم دلآلة واوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الإله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا وإنه لو كان في السماوات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما

وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول وبداية الفطر(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

الأنبياء 22

فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) **المؤمنون 91**

فهذان برهانان يعجز الأولون والأخرون ان يقدحوا فيهما بقدح صحيح أو ياتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر وسنفرد إن شاء الله كتاب مستقلا لأدلة التوحيد

فصل

تأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات

في علوها وإرتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها وعلاقة فوقها بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي (يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) **فاطر 41**

ثم تأمل - إستواءها وإعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج

ثم تأمل - ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد

وقال : الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الإطلاع إلى إجانة خضراء مملؤءة ماء

فتأمل - كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك

فصل

تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار

ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور

ثم تأمل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وإنبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء

ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس وإتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه **بقوله : عز وجل** (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) **القصص 71 - 73**

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار

لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع **فقوله : تعالى** (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) راجع إلى **قوله : تعالى** (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ)

وقوله : تعالى (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) راجع الى **قوله : تعالى** (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ)

وقال تعالى

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) **الفرقان 61 - 62**

فذكر : تعالى خلق الليل والنهار وإنهما خلفة أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما وإختلافهما وهذا هو المراد بإختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حتيزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائما يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه

فصل

تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس

في إنخفاضها وإرتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكثف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها وإشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا فتنضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي إنعقدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف **ولهذا** - تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فإذا جاء الخريف إعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فإنكسر ذلك السموم وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا يتنقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره فإذا إنتقل اليه بتدريج وترتب لم يصعب عليه فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو اشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

فصل

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة

وكيف جعل لهما بروجا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك
فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه **كقوله : تعالى** (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) **يونس 5**
وقال : تعالى
(**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا**) **الإسراء 12**
فصل

تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز

العليم سبحانه فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم والنهار سرمدا على من هي طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء
فإقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى الغرب فتشرق على ما إستتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم
فصل

تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار

تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة وإختلفت الحكمة بذلك بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه **قال : الله تعالى** (**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ**) **فاطر 13**
وفيه قولان: -
أحدهما - أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار
والقول : الثاني - إنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الاخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الإعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر

وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات

فإذا ـ زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة او البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها إعتدالان خريفين وربيعين

فصل

تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك

فإن الله تعالى إقتضت حكمته خلق الظلمة لهدو الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الإختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم

فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي إقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانا فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه .

فصل

تأمل حكمته تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها

وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدي بها في طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط

ولولا ذلك لم يحصل لنا الإهتداء والدلآلة ومعرفة المواقيت

ثم تأمل تسخيرها منقادة بامر ربها تبارك وتعالى جارية على سنن واحد إقتضت حكمته وعلمه أن لا تخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والابيض الأزهر والأبيض الأحمر ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدر سيرها تقديرا واحدا

ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر ومنها ما يقطعها في عام ومنها ما يقطعها في عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسباب لما يحدثه سبحانه في هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التي تقارنها وكذلك غيرها من المنازل والسيارات

ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لقربها من المركز ولما في ذلك من الحكمة الإلهية وأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر فهم ينظرون اليها وإلى الجدي والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاؤا

ثم تأمل ـ إختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقته لا يفرد عنهم سيره أبدا بل لا يسيرون إلا جميعا وبعضها يسير سيرا مطلقا غير مقيد برفيق ولا صاحب بل إذا اتفق له مصاحبته في منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى فبينا تراه ورفيقه وقرينه إذ رأيتهما مفترقين متابعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الإختلاف سير عام يسير بها فلكها وسير خاص تسير هي في فلكها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحى ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين فالنملة في ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متاينتين إحداهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعا للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها

وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ثم يسير فلكها وبمنزلتها إلى جهة الغرب

فسل الزنادقة والمعطلة ـ أي طبيعة اقتضت هذا وأي فلك أوجبه وهلا كانت كلها راتبه أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد

وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومتبدعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذي خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الأعراف 54

فإن ـ قلت : فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبا وبعضها منتقلا

قيل : إنها لوكانت كلها راتبة لبطلت الدلآلة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لإختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلآلآت التي في إختلافها ولتشبث المعطل بذلك وقال : لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد

فهذا - الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلآئل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته

فصل

تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه وكيف يدور

على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام وما في طي ذلك من إختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم

ولهذا - خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله وإنما دعوهم إلى عبادته وحده والإقرار به

فقالت : لهم (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) إبراهيم **10**

فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه **قال : تعالى** (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الرعد **2 – 4**

وقال : تعالى

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) الجاثية **2 – 6**

وقال : تعالى

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

لقمان 10 – 11

وقال : تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ

تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) . .

النحل 3 - 17

وتأمل - كيف وحد سبحانه الآية من قوله : تعالى (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب إلى آخرها وختمها بأصحاب الفكرة

فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلآلة واحد وهو الماء الذي أنزله من السماء فأخرج به كلما ذكره من الأرض وهو على إختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة .

فهذا - نوع واحد من آياته .

وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه والإستدلآل به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه

وأما قوله : تعالى في الآية التي بعدها (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **الرعد 4**

فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفياتها

فإن إظلام الجو لغروب الشمس ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية أخرى ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرى وفي النجوم آيات أخر كما قدمناه هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح وإختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر

فالموضع - موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر والأولى كالباب لهذه فمن إستدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلآلة إستحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزله المنزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر ونقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمله

فأما قوله في الاية الثالثة(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

فوحد الآية وخصها بأهل التذكر فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء فإن ما ذرأ في الأرض على إختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله في محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه

وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما **قال : تعالى في سورة ق**

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) **ق 7 -8**

فالتبصرة التعقل والتذكرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله

فإذا ـ فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل

الفرق بين التذكر والتفكر

فإن ـ قلت : فما الفرق بين التذكر والتفكر فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة

قلت : التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة

ولهذا ـ وسعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة اليه .

قال : الحسن رضى الله عنه ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار

فاعلم ـ أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته

فإنه ـ لو لم يكن ثم مراد يكون موردا للفكر إستحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلا عنده لم يتفكر فيه

فإذا ـ عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادي التي عنده إلى المطلوب الذي يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي إجتنابه

فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكرة على تفكره فإستخرج ما لم يكن حاصلا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره ما دام عاقلا لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائما سائر بين العلم والإرادة

وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر

والمقصود ـ تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفذ الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات الله وعجائب صنعه والإنتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين إذ هما افضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار

فصل

فسل المعطل الجاحد

ما تقول : في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللا في مادته ولا في صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفي تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام

أترى هذا إتفاقا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل إتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك إتفاقا من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان وما الذي يفتيك به وما الذي يرشدك إليه ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبا عميا لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق أعينا لا أبصار لها والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهي لا تراها فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها فهي تقول في ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا ولقد أحسن القائل : -

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء

فصل

تأمل الممسك للسماوات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا

أو يتعطل بعض ما فيهما أفترى من الممسك لذلك ومن القيم بأمره ومن المقيم له فلو تعطل بعض آلآت هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه

وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان فلو أمسك عنهم قيم السماوات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدا من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فمن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل ولو أن السماء والأرض زالتا فمن ذا الذي كان يمسكها من بعده قال : تعالى (**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**) **) فاطر 41**

فصل

تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما

وفكر في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته ولو دخل عليه مفاجاة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها وبالنبات كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة الى مكان مفرط في البرودة

ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك

فإن قلت : هذا التدريج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس في إرتفاعها وإنخفاضها قيل : لك فما السبب في ذلك الإنخفاض والإرتفاع

فإن ـ قلت ـ السبب في ذلك بعدالمسافة من مشارقها ومغاربها

قيل : لك فما السبب في بعد المسافة ولا تزال المسالة متوجهة عليك كما عينت سببا حتى تفضي بك إلى أحد أمرين إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك إتفاق من غير مدبر

ولا صانع وإما الإعتراف برب العالمين والإقرار بقيوم السماوات والأرضين والدخول في زمرة أولى العقل من العالمين ولن تجد بين القسمين واسطة أبدا فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين وإذا طلع فجر الهدى واشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) الصف 8

فصل

تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون

والظهور فإنها لو كانت ظاهرة أبدا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ولو كانت كامنة لا تظهر أبدا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها

فإقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما إحتاج الى بقائها فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الإستمتاع والإنتفاع والسلامة من الضرر **قال : تعالى**

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) **الواقعة 71 – 74**

فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف الينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلآلآت العالمين **فأخبر سبحانه** أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الخالية وهم أحوج إلى الإنتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفي والأنس وغير ذلك

فصل

تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان

دون غيره من الحيوانات فلا حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاؤا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا في ظلمة الليل الداجي وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فإحتاج إلى ضياء أو دواء أو إستخراج دم او غير ذلك

ثم انظر - إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد

ثم انظر ـ إلى أنه لو إقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفذ ولا يضعف

وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى

ثم تأمل ـ ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلا

فمن أعطى هذه القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل (**ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**) يس 38

فصل

تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان

والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهرا وباطنا وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على إختلافها ينقلها من موضع الى موضع فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح

وكذلك تأتيه الأصوات وهو أيضا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات

وتأمل ـ منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب

وتأمل ـ كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر فسخرت له المثيرة أولا فتثيره بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقا واحدا ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاما لا ماء فيه ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ثم سخرت له بعد إعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعا ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرا

وكذلك ـ الرياح التي تلقح الشجر **والنبات** ولولاها لكانت عقيما

وكذلك ـ الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر

ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد إضرامها وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها

وبالجملة ـ فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوي النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد

ألا ترى اذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو

فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال : النبي صلى الله عليه وسلم " في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة " .

وتنبه للطيفة في هذا الهواء وهي أن الصوت أثر يحدث عند إصطكاك الأجرام وليس نفس الإصطكاك كما قال : ذلك من قاله : ولكنه موجب الإصطكاك وقرع الجسم للجسم

أو قلعة عنه فسببه قرع أو قلع فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه إلى ما مع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم

فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لإمتلأ العالم منه ولعظم الضرر به وإشتدت مؤنته وإحتاج الناس إلى محوه من الهواء والإستبدال به أعظم من حاجتهم إلى إستبدال الكتاب المملوء كتابة

فإن ما يلقى من الكلام في الهواء أضعاف ما يوضع في القرطاس

فإقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاسا خفيا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحي بإذن ربه فيعود جديدا نقيا لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت .

فصل

تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة

لتكون مهادا ومستقرا للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوهم والتمكن من أعمالهم

ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوا ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحته

وإعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك

بقوله : تعالى

(وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) النحل 15

وقوله : تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا) غافر 64

وقوله : تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا) طه 53

وفي القراءة الأخرى مهادا

وفي جامع الترمذي وغيره من حديث

أنس بن مالك رضى الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال عليها فإستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال : نعم الحديد قالوا : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال : نعم النار قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال : نعم الريح قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال : نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله " .

ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها فإنها لو أفرطت في اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الإنتفاع بها ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الإعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح

فصل

تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب

وحكمة ذلك ـ أن تتحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب في البحر فكما أن الباني إذا رفع سطحا رفع أحد جانبيه وخفض الأخر ليكون مصبا للماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فأفسده

كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب

ولولا ذلك لبقي الماء واقفا على وجه الارض فمنع الناس من العمل والإنتفاع وقطع الطرق والمسالك وأضر بالخلق أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول : هذا كله إتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي اتقن كل شيء

فصل

تأمل الحكمة العجيبة في الجبال

الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة اليها وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة رضى الله عنه قوله : " للنبي صلى الله عليه وسلم بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع آلله أمرك بكذا وكذا قال : اللهم نعم " .

فمن منافعها أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلا لشراب الناس إلى حين نقاذه وجعل فيها ليذوب أولا فأولا فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل

فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فإنحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان في إنحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته

من منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي منزلة الحصون والقلاع

وهي أيضا ـ أكنان للناس والحيوان ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبينة على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها

ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على إختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى إن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه

ومن منافعها أيضا أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها

ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية

ومن منافعها أيضا ـ أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن

ومن منافعها ـ أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي منزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاما **فقال : تعالى**

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) **الشورى 32**

فالجواري : هي السفن والأعلام : الجبال

وأحدها علم قالت : الخنساء : ـ

وأن صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

فسمى الجبل علما من العلامة والظهور

ومن منافعها أيضا ـ ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم

ومن منافعها ـ أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن

ومن منافعها ـ ما ذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن وأعظم بها من منفعة

وحكمة هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة إنها لو طالت وإستدفت كالحائط لتعذر الصعود عليها والإنتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الإنتفاع بها ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الإنتفاع من التحصن والمغارات والأكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الإنتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها واليقها واوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه

ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها **فقال : تعالى**

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) **الغاشية 17 – 19**

فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدره باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) **الأحزاب 72**

ومنها ـ الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام كليمه ونجيه

ومنها ـ الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكدك

ومنها ـ الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه

ومنها ـ الجبلان اللذان جعلهما الله سورا على نبيه صلى الله عليه وسلم وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم

ومنها ـ جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤا من كل فج عميق وقوفا لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته شعثا غبرا حاسرين عن رؤسهم يستقبلوله عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام

ومنها ـ جبل حراء الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو في غارحراء فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك

فسبحان من إختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالا هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهي تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها كما إختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول في الأرض بينهم

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وإنها لتعلم ان لها موعدا ويما تنسف فيها نسفا وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له وكانت أم الدرداء رضى الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول : لمن معها أسمعت الجبال ما وعدها ربها فيقال : ما أسمعها فتقول : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) **طه 105 – 107**

فهذا ـ حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته

وقد **أخبر عنها فاطرها وباريها** أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله في عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه

فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلا فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم

فصل

ولما إقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض

السهل والوعروالجبال والرمل لينتفع بكل ذلك في وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ما خرج منها وجعلها سبحانه كفاتا فلأحياء

ما داموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتا **قال : تعالى**

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا) **المرسلات 25 - 26**

فإذا - كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتني وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر

فصل

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل في تجاويفها

وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها في بعض الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازال العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرعاليه والندم

كما قال : بعض السلف وقد زلزلت الأرض إن ربكم يستعتبكم

وقال : عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال : لئن عادت لا أساكنكم فيها

فصل

تأمل حكمة الله عز وجل في عزة هذين النقدين الذهب والفضة

وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله إياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم وإجتهادهم في ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكنوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم وإستفاض الذهب والفضة في الناس حتى صاركالسعف والفخار وكانت تتعطل المصلحة التي وضعا لأجلها وكانت كثرتهما جدا سبب تعطل الإنتفاع بهما فإنه لا يبقى لهما قيمة ويبطل كونهما قيما لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ولم يتسخر بعض الناس لبعض إذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة

فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بإمتهانها في الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها

فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما في العالم بقدر إقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده

وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الأنباري

قال : أخبرني بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل فإنتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلبا بماء غزير لا يدرك ولا حيلة في عبوره فإنصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فإنصرفوا آيسين

وهذا أحد ما يدل على بطلان صناعة الكيمياء وأنها عند التحقيق زغل وصبغة لا غير وقد ذكرنا بطلانها وبينا فسادها من أربعين وجها في رسالة مفردة

والمقصود - أن حكمة الله تعالى إقتضت عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس

واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الأمتعة كان نفيسا عزيزا ما دام فيه قلة وهو مرغوب فيه فإذا فشى وكثر في أيدي الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه ومن هذا قول : القائل نفاسة الشيء من عزته

ولهذا - كان أزهد الناس في العالم أهله وجبرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه

فصل

تأمل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده

ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذلك بذل كلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما إستغنوا عنه كان أقل وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها

فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار

وتأمل - سعة ما خلق الله منها وكثرته

فتأمل - سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظه واحدة

ولولا كثرته وسعته وإمتداده في أقطار العالم لإختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد

فتأمل حكمة ربك في أن سخر له الرياح فإذا تصاعد الى الجو أحالته سحابا أو ضبابا فأذهبت عن العالم شره وأذاه

فسل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابا أو ضبابا أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس

فصل

من ذلك سعة الأرض وإمتدادها

ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الإنس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم

فإن قلت : فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة

فاعلم أن فيها معايش ما لا يحصيه الا الله من الوحوش والدواب وعليها أرزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للإنس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتهاهم ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب إذا إحتاجوا إلى الإنتقال والبدو والإستبدال بالأوطان فكم من بيداء سملق صارت قصورا وجنانا ومساكن

ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين في أماكنهم لا يجدون عنها إنتقالا إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطرهم إلى النقلة منها

وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه في الأودية والأنهار لضاق عن حاجة الناس إليه ولغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع
فإقتضت الحكمة أن كان بهذه الكثرة والسعة في كل وقت
وأما النار فقد تقدم أن الحكمة إقتضت كموتها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهي وإن لم تكن مبثوثة في كل مكان فإنها عتيدة حاصلة متى أحتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة في أجسام جعلت معادن لها للحكمة التي تقدمت
فصل

تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض

من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا إجتمع في السفلى وكثر وفي ذلك فساد
فإقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشيء سبحانه السحاب وهي روايا الأرض ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى
ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول : الشاعر يصف السحاب
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئبج
فإذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة فالله سبحانه ينشيء الماء في السحاب إنشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التي ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقي إلا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فصاعدة إلى الجو بلطفه وقدرته ثم إنزله على الأرض بغاية من اللطف والحكمة التي لا إقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض
فصل

تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة

حتى إذا اخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعني الصحو والغيم يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساده فلو توالت الأمطار لأهلكت ما علي الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضروات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضرر وإحتدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال .
فإقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فإعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر وإستقام أمر العالم وصلح
فصل

تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات

والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها فإن كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يتقضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه

ثم إنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع اخر من العصف والخشب والورق والنور والعسف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الأبنية والسفن والرحال والأواني وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يشوق الناظرين وحسن مرائي الشجر وخلقتها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف

ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم إخراج تلك الثمار على إختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يراد منها

ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم

فهل - كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفائقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة

فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصيره وإبرازه وترتيبه شيئا فشيئا وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجاري الدقاق فمن الذي تولى ذلك كله ومن الذي أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات

وتامل تقدير اللطيف الخبير فإن الإشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه في مجاري وطرق قد أحكمت غاية الإحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر حاجته

فسل الجاحد من أعطاها هذا ومن هداها إليه ووضعه فيها فلو إجتمع الأولون والأخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو نصاعة أو حيلة أو مزاولة وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته دلت عليه آياته كما قيل : -

فواعجبا كيف يعصى الإله — أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحـــــريكه — وتسكينه أبـــدا شاهد
وفي كل شيء لـــــه آية — تـــدل على أنه واحد

فصل

تأمل إذا نصبت خيمة أو فسطاطا

كيف تمده من كل جانب بالأطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج هكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة في الأرض منتشرة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما إنتشرت أعاليه إمتدت عروقه وأطنابه من أسفل في الجهات

ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف

وتأمل سبق الخلق الإلهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقه للشجر والنبات لأن عروقها أطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفساطيط ثم يحاكى بها الشجرة

فصل

تأمل الحكمة في خلق الورق فإنك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق

الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل ولإحتاجوا فيه إلى ألآت وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يملأ الأرض سهلها وجبالها بلا ألآت ولا معين ولا معالجة إن هي إلا إرادته النافذة في كل شيء وقدرته التي لا يمتنع منها شيء (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**) **يس 82**

فتأمل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه

وتأمل ما في العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق

فصل

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر

وسترا ولباسا للمثرة ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها

ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها

وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباسا جديدا أحسن منه

(**فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) **غافر 64**

الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منها ورقة إلا باذنه ولا تسقط إلا بعلمه ومع هذا فلو شاهدها العبادعلى كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأو خلقتها بعين أخرى ولعلموا أن لها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى

قال : تعالى (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) **الرحمن 6**

فالنجم : ما ليس له ساق من النبات والشجر : ما له ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده
(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)
الإسراء 44

ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلآلتها على صانعها فقط
فاعلم ـ أن هذا القول : يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجها قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر وفي أي لغة تسمى الدلآلة على الصانع تسبيحا وسجودا وصلاة وتأويبا وهبوطا من خشيته كما ذكر تعالى ذلك في كتابه فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة **كقوله : تعالى**
(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) النور 41

أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلآلته عليه وسمى تلك الدلآلة صلاة وتسبيحا وفرق بينهما وعطف أحدهما على الآخر وتارة يخبر عنها بالتأويب
كقوله : تعالى
(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) سبأ 10

وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشى والإشراق أفترى دلآلتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين

وبالجملة فبطلان هذا القول : أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه والحمد لله

فصل

ثم تأمل حكمته سبحانه في إبداع العجم والنوى في جوف الثمرة

وما في ذلك من الحكم والفوائد التي منها أنه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع إليها الفساد فهو بمنزلة العظم ولثمرة بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله عز وجل العظام

ومنها أن في ذلك بقاء المادة وحظفها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلها ومنها ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والأصباغ وضروب أخر من المصالح التي يتعلمها الناس وما خفي عليهم منها أكثر

فتأمل الحكمة ـ في إخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لذيذا شهيا يتكفه به ابن آدم

ثم تأمل هذه الحكمة البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غلافا يحفظها وغشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز ونحوه

وأما ما لا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فإذا إشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره

فصل

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب

فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال القلال شحما متراكما في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن الأيدي أن تنضده وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج ألطفه وأدقه على غير منوال إلا منوال (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) **يس 82**

ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد إشتمل على ذلك كله وضمه أحسن ضم

فتأمل هذه الحكمة - البديعة في الشحم المودع فيها فإن الحب لا يمد بعضه بعضا إذ لو مد بعضه بعضا لإختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم

وهذا بخلاف حب العنب فإنه إستغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق أختها بل يجرى الغذاء في ذلك العرق مجرى واحدا ثم ينقسم منه في مجاري الحبوب كلها فينبعث منه في كل مجرى غذاء تلك الحبة (فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) **غافر 64**

ثم إنه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونا له وحفظا وممسكا له بإذن الله وقدرته

فهذا - قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولاغيرنا إستقصاء ذلك ولو طالت الأيام واتسع الفكر ولكن هذا منبه على ما وراءه واللبيب يكتفى ببعض ذلك

وأما من غلبت عليه الشقاوة (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) **يوسف 105**

غافلون : عن موضع الدلآلة فيها

فصل

ثم تأمل هذا الريع والنماء الذي وضعه الله في الزرع

حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعمائة حبة ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها لا يكون في الغلة متسع لما يرد في الأرض من الحب وما يكفي الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعه فصار الزرع بريع هذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة

وكذلك ثمار الأشجار والنخيل

وكذلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعلمونه في مآربهم خلفا فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص **ولو** أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله ما يبذرونه فيهم وما يقيتهم إلى إستواء الزرع

فإقتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة لبقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون

فصل

ثم تأمل الحكمة في الحبوب

كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا في قشور على رؤسها أمثال الأسنة فلا يتمكن جند الطير من إفسادها والعبث فيها

فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن فأفسدوا وعاب وعاث وأكب عليه أكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للإنسان فإنه أولى به لأنه هو الذي كدح فيه وشقى به وكان الذي يحتاج إليه أضعاف حاجة الطير

فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة في هذه الأشجار

كيف تراها في كل عام لها حمل ووضع فهي دائما في حمل وولادة فإذا أذن لها ربها في الحمل إحتبست الحرارة الطبيعية في داخلها وإختبأت فيها ليكون فيها حملها في الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطف فتعمل المادة في أجوافها عملها وتهيئها للعلوق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء في أفنانها وإنتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق ما تتبخر فيه وتميس به وتفخر على العقيم

فإذا ظهرت أولادها وبان للناظر حملها علم حينئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة في بطون أمهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد

فإذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت إليك أفنانها كأنما تناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الأفنان كأنها تلقاك بأولادها وتحييك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأن منا ولا يناولك إياهم بيده ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن قائما وقاعدا ومضطجعا

وكذلك - ترى الرياحين كأنها تحييك بانفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا إكراما لك وعناية بأمرك وتخصيصا لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات

أفيجمل بك الإشتغال بهذه النعم عن المنعم بها فكيف إذا إستعنت بها على معاصيه وصرفتها في مساخطه فكيف إذا جحدته وأضفتها الى غيره كما **قال : تعالى** (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) **الواقعة 82**

فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلآء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها ماهو ولأي شيء خلق ولماذا هيىء وأي أمر طلب منه على هذه النعم كما **قال : تعالى** (**فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) **الأعراف 69**

فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحمدا وشكرا وطاعة وشهود تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل : -

قد هيؤك لأمر لو فطنت له   فأربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فصل

ثم تأمل الحكمة في شجرة اليقطين والبطيخ والجزر

كيف لما إقتضت الحكمة أن يكون حمله ثمارا كبارا جعل نباته منبسطا على الأرض إذ لو إنتصب قائما كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل إدراكها وإنتهائها إلى غاياتها

فإقتضت حكمة مبدعها وخالقها أن بسطه ومده على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطا على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها حيوان قد إكتنفها أجراؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوبيا والباذنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته أنتبه الله منتصبا قائما على ساقه إذ لا يلقى من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه

ثم تأمل - كيف اقتضت الحكمة الإلهية موافات أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمآن فتتلقاها الطبيعة بإنشراح وإشتياق منتظرة لقدومها كإنتظار الغائب للغائب

فلو كان نبات الصيف إنما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية وإستثقالا بوروده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها

وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف أو ما في خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا إستطابته وإستلذته ذلك الإلتذاذ

ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن أن هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير

فصل

ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله

تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه ولذلك إشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من وجوه كثيرة : -

إحداها - ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار

الثاني - طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره

الثالث - دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى

الرابع - سهولة تناول ثمرتها وتيسره أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها

وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم

الخامس - أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسه يكون قوتا وإداما وفاكهة ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار

وقد إختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلدا فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين

وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعا وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعا وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل وحضرت مرة في مجلس بمكة فجرت هذه المسئلة وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل وفوائده وقال : في أثناء كلامه ويكفي في تفضيله أنا نشتري بنواه العنب فكيف يفضل عليه ثمر يكون نواه ثمنا له

وقال : آخر - من الجماعة قد فصل النبي صلى الله عليه وسلم النزاع في هذه المسئلة وشفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب كرما " وقال : " الكرم قلب المؤمن " .

فأي دليل أبين من هذا وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك

فقلت : للأول- ما ذكرته من كون نوى التمر ثمنا للعنب فليس بدليل

فإن - هذا له أسباب : -

أحدها - حاجتكم إلى النوى للعلف فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته

الثاني - أن نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع

الثالث - أن الأعناب عندكم قليلة جدا والتمر أكثر شيء عندكم فيكثر نواه فيشترى به الشيء اليسير من العنب

وأما في بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شيء ولا قيمة لنوى التمر فيها

وقلت : لمن احتج بالحديث هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره فإنه يؤكل رطبا ويابسا وحلوا وحامضا وتجنى منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك فسموه كرما لكثرة خيره فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والإحسان والنصح وسائر أنواع البر والخير التي وضعها الله في قلب المؤمن فهو أحق بأن يسمى كرما من شجر العنب ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم إبطال ما في شجر العنب من المنافع والفوائد وأن تسميته كرما كذب وأنها لفظة لا معنى تحتها كتسمية الجاهل عالما والفاجر برا والبخيل سخيا ألا ترى أنه لم ينف فوائد شجر العنب وإنما اخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائد وأعظم منافع منها هذا الكلام أو قريب منه جرى في ذلك المجلس

وأنت إذا تدبرت قول : " النبي صلى الله عليه وسلم الكرم قلب المؤمن " .

وجدته مطابقا لقوله : في النخلة مثلها مثل المسلم فشبه النخلة بالمسلم في حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم في الحديث الآخر ونهاهم أن يخصوا شجر العنب بإسم الكرم دون قلب المؤمن

وقد قال : بعض الناس في هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرما لأنه يقتنى منه أم الخبائث فيكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد الذرائع في الألفاظ

وهذا لا بأس به لولا أن قوله : "صلى الله عليه وسلم فإن الكرم قلب المؤمن" .

كالتعليل لهذا النهي والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله صلى الله عليه وسلم اعلم بما أراد من كلامه فالذي قصده هو الحق

وبالجملة فالله سبحانه - عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والأعناب فساقها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله فإن أم الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل كما **قال : تعالى** (وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **النحل 67**

وقال : أنس رضى الله عنه نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شيء وإنما كان شراب القوم الفصيخ المتخذ من التمر فلو كان نهيه عن تسمية شجر العنب كرما لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن لأن المسكر يتخذ منها والله أعلم الوجه

السادس - من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح

السابع - أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ما هومعلوم عند الناس وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ) محمد 29

الثامن - أنها كلما أطال عمرها إزداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك المؤمن إذا طال عمره إزداد خيره وحسن عمله

التاسع - أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب

العاشر - أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبدا بل إن تعطلت منها منفعه ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للإنسان في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولا وشره مأمونا

وفي الترمذي مرفوعا

إلى النبي صلى الله عليه وسلم " خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره " .

فهذا - فصل معترض ذكرناه استطرادا للحكمة في خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه **فتأمل** خلقة الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها

وهكذا ـ سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتا كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه داخل بعضا طولا وعرضا كتداخل إجزاء اللحم بعضها في بعض **فإن** ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه فإنه لو كان مصمتا كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلآت والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت وما أشبهها

ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة ونقلها من بلد الى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم

فصل

ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والأدوية التي يخرجها الله

من الأرض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القاتلة لو احتسبت وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الأورام وهذا يسكن الهيجان والقلق وهذا يجلب النوم ويعيده إذا أعوزه الإنسان وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل وهذا يفرح القلب إذا تراكمت عليه الغموم وهذا يجلو البلغم ويكشطه وهذا يحد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباءة وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية وهذا يقاوم بكيفيته كيفية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولهما وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها وهذا يعطي اللون إشراقا ونضارة وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يجلوها ويغسلها إلى أضعاف ذلك مما لا يحصيه العباد

فسل المعطل من جعل هذه المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن أعطى كل منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان إلى تناول ما ينفع منه ترك ما يضر ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم وبأي عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ما خلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا إنعام الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهب أن الإنسان فطن لهذه الإشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فمن الذي فطن لها البهائم في أشياء كثيرة منها ما لا يهتدي إليها الإنسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فمن الذي جعله يقصد ذلك النبات دون غيره

وقد ـ شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول إذا إعتل شيئا من النبات فتعود صحته وقد ذكر الأطباء في مبادئ الطب في كتبهم من هذا عجائب

فسل المعطل ـ من ألهمها ذلك ومن أرشدها اليه ومن دلها عليه أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) **الحشر 24**

الذي لا تنبغي العبادة إلا له وأنه لو كان معه في سماواته وأرضه إله سواه لفسدت السماوات والأرض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا

ولعلك أن تقول ما حكمة هذا النبات المبثوث في الصحارى

والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة في خلقه وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك فكم لباريه وخالقه فيه من حكمة وآية من طعام وحش وطير ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام

الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل إنتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الإنتفاع بها ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لإمتنعت من طاعته وإستعصت عليه ولم تكن مسخرة له فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان وليظهر أيضا فضيلة التمييز والإختصاص

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره

قال : الله تعالى (كُلِّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) **الزخرف 12 - 13**

فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلا منقادا ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضوا عضوا

فسل المعطل - من الذي ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده

فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد الى عدة أناسى يحملونأثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلآت والاواني والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات

من الإنسان وغيره فالإنسان لما خلق مهيئا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط

والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف لطافه مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لإقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان وأما أكله النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها أظلافا تقيها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعي ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض وتهيأ للركوب والحمولة ولم يخلق لها براثن ولا أنيابا لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلقة الحيوان الذي يأكل اللحم

من البهائم كيف جعلت له أسنان حداد وبراثن شداد وأشداق مهرونة وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد والأكل

ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب كالكلاليب ولهذا حرم النبي صلى الله عليه وسلم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير لضرره وعدوانه وشره والمغتذى شبيه بالغاذي

فلو إغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرها ما يشابهها به فحرم على الأمة أكلها فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم فأوضح الأحكام وبين الحلال والحرام

فانظر حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التي لا يختل نظامها ولا ينخرم أبدا ولا يختل أصلا ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا حكمته فيما أحكمه وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجات لا يحصيها إلا الله

ومنهم - من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر وهم أكثر الأطباء الذين صرفوا أفكارهم إلى إستخراج منافع النبات والحيوان وقواها وما تصلح له مفردة ومركبة وليس لهم نصيب في حكمة الأمر إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق بل أقل من ذلك

ومنهم - من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر بحسب استعداده وقوته فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا فإذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم إزداد إيمانا ومعرفة وتصديقا بما جاءت به الرسل وإذا نظر إلى أمره وما تضمنه من الحكم الباهرة إزداد إيمانا ويقينا وتسليما لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها فعمى بصره وغلظ عن الله حجابه ولو أعطى علمه حقه لكان من أقوى الناس إيمانا لأنه اطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ما خفي عن غيره

ولكن من حكمة الله أيضا أن سلب كثيرا من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لدناءتها

وخستها وحقارتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأسرار دينه وشرعه والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ما له نسبة إلى الخافي عنهم منه أبدا بل علم الأولين والأخرين منه كنقرة العصفور من البحر ومع هذا فليس ذلك بموجب للأعراض عنه واليأس منه بل يستدل العاقل بما ظهر له منه على ما وراءه

فصل

ثم تأمل أولا ذوات الأربع من الحيوان

كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها فلا تحتاج إلى الحمل والتربية كما يحتاج إليه أولاد الإنس فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلآت المتصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض والإستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة

ولذلك ـ ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والفتخ يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة وما كان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها فتخبأه في أعز مكان فيها ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ولا تزال بها كذلك حتي ينهض الفرخ ويستقل بنفسه

وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة فإذا استقل بنفسه وأمكنه الطيران لم يزل به الأبوان يعالجانه أتم معالجة وألطفها حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه ويأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط بل يطردانه عن الوكر ولا يدعانه وأقواتهما وبينهما بل يقولان له بلسان يفهمه إتخذ لك وكرا وقوتا فلا وكر لك عندنا ولا قوت

فسل المعطل أهذا كله عن إهمال ومن الذي ألهمها ذلك ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ما كانت إليها ثم سلب ذلك عنها إذ استغنت الفراخ رحمة بالأمهات تسعى في مصالحها إذ لو دام لها ذلك لأضربها وشغلها عن معاشها لا سيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والإيثاروالحنان رحمة بالفراخ وسلبها إياها عند استغنائها رحمه بالأمهات

أفيجوز ـ أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولا عناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلوهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها جحودا إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور (**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ**) **إبراهيم 10**

وإنما يكون الشك فيما تخفي أدلته وتشكل براهينه فأما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين فكيف يكون فيه شك

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان

كيف إقتضت أن يكون زوجا لا فردا إما اثنتين وإما أربعا ليتهيأ له المشي والسعي وتتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك لأن الماشي ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد

على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ولكان مشيه نقرا كنقر الطائر وذلك مما يؤذيه ويتبعه لنقل بدنه بخلاف الطائر
فإقتضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجليه وإقرار يسرى اليدين ويمنى الرجلين ثم نقل الأخريين كذلك وهذا أسهل ما يكون من المشي وأخفه على الحيوان

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسوطة

كأنها سقف على عمد القوائم ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة عليها ثم خولف هذا في الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل : إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل
وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعي من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضا طول عنقه موازنا للحمل على ظهره إذا استقل به كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل إن القبان إنما عمل من خلقه الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنه

فصل

ثم تأمل الحكمة في كون فرج الدابة جعل بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها

ولو جعل في أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذي تجامع به المرأة
وقد ذكر في كتب الحيوان أن فروج الفيلة في أسفل بطنها فإذا كان وقت الضراب إرتفع ونشز وبرز للفحل فيتمكن من ضرابها فلما جعل في الفيلة على خلاف ما هو في سائر البهائم خصت بهذه الخاصية عنها ليتهيأ الأمر الذي به دوام النسل

فصل

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمي

هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو في غاية الصلابة والقوة كالسلحفاة وبعضها من الريش ما هو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذي يريد أذاها فإنها لما لم يكن لها سبيل إلى إتخاذ الملابس وإصطناع الكسوة وألآت الحرب أعينت بملابس وكسوة لا تفارقها وألآت وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدمت الأحذية والنعال فمعها حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجرى وجعل لها ذلك أيضا سلاحا عند إنتصافها من خصمها عوضا عن الصياصي والمخالب والأنياب
فتأمل هذا اللطف والحكمة فإنها لما كانت بهائم خرصا لا عقول لها ولا أكف ولا اصابع مهيأة للإنتفاع والدفاع ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الأدميون من النسج والغزل

ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج إلى الإستبدال بها وأعطيت ألآت وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتتم الحكمة التي أريدت بها ومنها **وأما الإنسان** فإنه ذو حيلة وكف مهيئة للعمل فهي تغزل وتنسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات عديدة منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة

ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروبا من الكسوة للصيف وضروبا للشتاء فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف فيتخذ لنفسه في كل فصل كسوة موافقة

ومنها أنه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لإختياره كما جعلت مطاعمه

كذلك فهو يكتسى ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحريروالإبريسم فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وإبتهاجه وزينته بها

ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هي في الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان فدل على أن ذلك أكمل وأجل وأبلغ في النعمة

ومنها إرادة تمييزه عن الحيوان في ملبسه كما ميزه عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه

ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وجربه وسلمه وظعنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق إلا بها فلم يجعل كسوته في هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الإستبدال بها فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان

فصل

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع

والدواب على كثرتها لا يرى منها شيء وليس شيئا قليلا فتخفى لقلتها بل قد قيل : أنها أكثر من الناس

واعتبر ذلك بما تراه في الصحارى من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور وضروب الهوام على إختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكاد ترى منها شيئا ميتا لا في كناسة ولا في أوكاره ولا في مساقطه ولا في مراعيه بطرقه وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه إلا ما عدا عليه عاد إما إفترسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن إحراز جسمه وإخفاء جيفته

فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنت حيث لا يوصل إلى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البين بها

ولولا ذلك لإمتلأت الصحارى بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها فعاد ضرر ذلك بالناس وكان سبيلا إلى وقوع الوباء وقد دل على هذا **قوله : تعالى في قصة ابني آدم** (**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**) **المائدة 31**

وأما ما جعل عيشه بين الناس كالأنعام والدواب فلقدره الإنسان على نقله وإحتياله في دفع أذيته
فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعا في البهائم وكيف تعلموه من الطير
وتأمل الحكمة في إرسال الله تعالى لإبن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله تعالى وغربته من أبيه وأهله وإستيحاشه منهم وإستيحاشهم منه وهو من الطيور التي تنفر منها الإنس ومن نعيقها وتستوحش بها فأرسل إليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ وصار بمنزلة المتعلم ولا تنكر حكمة هذا الباب وإرتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال : "النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعثتم إلى بريدا فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه " .
وكان يسأل عن اسم الأرض إذ نزلها واسم الرسول إذا جاء إليه ولما جاءهم سهيل ابن عمرو يوم الحديبية قال : قد سهل أمركم ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال : لم يزل معنى اسمه فيه وفي ذريته
ولما سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره أنه جمرة بن شهاب وأن داره بالحرقة وأن مسكنه منها ذات لظى قال : له أدرك بيتك فقد إحترق فكان كما قال له
قال : وشواهد هذا الباب أكثر من أن نذكر هاها هنا وهذا باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الأسماء والمسببات وكثيرا ما أولع الناس قديما وحديثا بنعيق الغراب وإستدلالهم به على البين والإغتراب وينسبونه إلى الشؤم وينفرون منه وينفر منهم فكان جديرا أن يرسل هذا الطائر إلى القاتل من ابني آدم دون غيره من الطيور
فكأنه صورة طائره الذي ألزمه في عنقه وطارعنه من عمله ولا تظن أن إرسال الغراب وقع إتفاقا خاليا من الحكمة فإنك إذا خفي عليك وجه الحكمة فلا تنكرها
واعلم أن خفاءها من لطفها وشرفها ولله تعالى فيما يخفى وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحمودة
فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة في وجه الدابة

كيف هو فانك ترى العينين فيه شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها أتم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها فتتقى أن تصدم حائطا أو تتردى في حفرة فجعلت عيناها كعيني المنتصب القامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا في أسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف إذ لو كان فوقها في مقدم الخطم كما أنه من الإنسان في مقدم الذقن لما إستطاعت أن تتناول به شيئا من الأرض ألا ترى الإنسان لا تناول الطعام بفيه لكن بيده فلما لم تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقا من أسفله لتضعه على العلف ثم تقضمه وأعينت بالجحفلة وهي لها كالشفة للإنسان لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد
وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة فمنها أنه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها يواريهما ويسترهما

ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وتر يجتمع عليه الذباب والبعوض فيؤذي الدابة فجعل أذنابها كالمذاب لها والمراوح تطرد به ذلك
ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فإنه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة وعسى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها أفهام الخلق ويزدريها السابع إذا عرضت عليه فإنه لا يعرف موقعها إلا في وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تربض في الوحل فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها
فصل

ثم تأمل شفر الفيل

وما فيه من الحكم الباهرة فإنه يقوم له مقام اليد في تناول العلف والماء وإيرادهما إلى جوفه ولولا ذلك ما إستطاع أن يتناول شيئا من الأشياء من الأرض لأنه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ليسد مسده وجعل قادرا على سدله ورفعه وثنيه والتصرف به كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به إذا شاء ويعطى ويتناول إذا أراد
فسل المعطل من الذي عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذي منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرؤوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم وكيف يتأتى ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيمة وبارئه ومبدعه وفاطره لا إله إلا هو العزيز الحكيم
فإن قلت : فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام وما الحكمة في ذلك ؟
قيل : والله أعلم بحكمته في مصنوعاته لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لإنهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه ملصقا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير للحكمة في ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه فسبحان من فاتت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين .
فصل

ثم تأمل خلق الزرافة

وإختلاف أعضائهم وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فراسها رأس فرس وعنقها عنق بعير وأظلافها أظلاف بقرة وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وذكروا أن اصنافا من حيوان البر إذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المستوحشة على السائمة فتنتج مثل هذا الحيوان وما أرى هذا القائل إلا كاذبا عليها وعلى الخلقة إذ ليس في الحيوان صنف يلقح صنفا آخر فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقة ولا الفرس يلقحهما ولا يلقحانه ولا الوحوش يلقح بعضها بعضا ولا الطيور وإنما يقع هذا نادرا فيما يتقارب كالبقر الوحشي والأهلي والضأن والمعز والفرس والحمار فيتولد من ذلك البغل والسمع والعسبار وقول : الفقهاء هل تجب

الزكاة في المتولد من الوحشي والأهلي فيه وجهان هذا إنما يتصور في واحد واثنتين وثلاثة يكمل بها النصاب
فأما نصاب كله متولد من الوحشي والأهلي فلا وجود لذلك وأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر في الزكاة وجزاء الصيد والأضاحي والأحوط يتغلب في كل باب ففي الأضاحي يتغلب عدم الأجزاء وفي الإحرام والحرم يتغلب وجوب الجزاء وفي الأطعمة يتغلب جانب التحريم وفي الزكاة اختلاف مشهور
وسئل شيخنا أبوالعباس بن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزا على فرس فأحبلها فهل يكون لبن الفرس حلالا أو حراما
فأجاب بأنه حلال ولا حكم للفحل في اللبن في هذا الموضع بخلاف الأناسي لأن لبن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحمها ولم يسرى وطيء الفحل إلى هذا اللبن فإنه لا حرمة هناك تنتشر بخلاف لبن الفحل في الأناسي فإنه تنتشر به حرمة الرضاع ولا حرمة هنا تنتشر من جهة الفحل لا إلى الولد خاصة فإنه يتكون منه ومن الأم فغلب عليه التحريم
وأما اللبن فلم يتكون بوطئه وإنما تكون من العلف فلم يكن حراما هذا بسط كلامه وتقريره
والمقصود - إبطال زعم أن هذه الحيوانات المختلفة يلقح بعضها بعضا عند الموارد فتتكون الزرافة وإنه كاذب عليها والذي يدل على كذبه أنه ليس الخارج من بين ما ذكرنا من الفرس والحمار والذئب والضبع والضأن والمعز عضو من كل واحد من أبيه وأمه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كما نشاهده في البغل فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسطا بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد سجيحه كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار
فهذا يدل على أن الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية دلآلة على قدرته وحكمته التي لا يعجزها شيء ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفي أي لون شاء فمنها المتشابه الخلقة المتناسب الأعضاء ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيئته تابع لها فمنه ما خلق من غير أب ولا أم وهو أبو النوع الإنساني ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى وهي أمهم التي خلقت من ضلع آدم ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم عليهما السلام ومنه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الإنساني فيرى عباده آياته ويتعرف اليهم بآلائه وقدرته وأنه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون
قال : تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) يس 82
وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر المعتنون بحالها ومساكنها في غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولا فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه

فصل

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة

وما أعطيته من الفطنة أو لحيلة في جمع القوت وإدخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنك ترى في ذلك عبرا وآيات فترى جماعة النمل إذا أرادت إحرازالقوت خرجت من أسرابها طالبة له فإذا ظفرت به أخذت طريقا من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سربا ذاهبا ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخالط تلك في طريقها بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم

فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك إجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حملة بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه

فإذا كان الذي ظفر به منهن وحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت

ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهن يوما عجبا قال : رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال : فرفعت ذلك الشق من الأرض فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئا فرجعن فوضعته ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعته فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئا فذهبت فوضعته فعادت فجاءت بهن فرفعته فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضوا عضوا وأنا انظر

ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا فإذا أصابه ندا وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده الى بيوتها

ولهذا ترى في بعض الأحيان حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسرا ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة

ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشر من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل في بطن واد ولكن في أعلاه وما إرتفع عن السيل منه ويكفي في فطنتها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها : لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده

(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) **النمل 18**

فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والإعتذار فإشتملت نصيحتها مع الإختصار على هذه الأنواع العشرة

ولذلك أعجب سلميان عليه السلام قولها وتبسم ضاحكا منه وسال الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها قال : تعالى (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) **النمل 19**

ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال : نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرجه ثم أحرق قرية النمل فأوحى الله إليه من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة " .

فصل

ومن عجيب الفطنة في الحيوان

أن الثعلب إذا اعوزه الطعام ولم يجد صيدا تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتا فيقع عليه ليأكل منه فيثب عليه الثعلب فيأخذه ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريبا منه يسكن مليا حتى كأنه موات لا حراك فيه فإذا رأى الذباب قد إطمأن وغفل عنه دب دبيبا رفيقا حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه

ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركا للصيد ثم يكمن في جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتص دمه

فهذا يحكى صيد الأشراك والشباك والأول يحكى صيد الكلاب والفهود ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقيروالإزدراء بذلك ميراث من الذين إستنكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار فأنزل الله تعالى

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) **البقرة 26**

فما أغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها وكم من دلآلة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته

فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف في إقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة فأغناها ما أعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير

فصل

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته

فإنه حين قدر بأن يكون طائرا في الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعا ثم خلق ذا جؤجؤ محدود ليسهل عليه إختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب

ولا يتعقف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وكان يزدرد الحب صحيحا واللحم غريضا أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فإستغنى عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الأنسان صحيحا وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر

ثم إقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضا ولا يلد ولادة لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران

وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعا أو أسبوعين بإختياره قاعدا على بيضه حاضنا له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته وبزق فراخه وليس بذي روية ولا فكرة في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الانسان في ولده من العون والرفد وبقاء الذكر

فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه

فصل

ثم تأمل خلقة البيضة

وما فيها من المخ الاصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يغتذى منه إلى أن يخرج من البيضة وما في ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشوء الفرخ في تلك البشرة المنخفضة التي لا نفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكتفي به إلى خروجه

فصل

وتأمل الحكمة في حوصلة الطائر

وما قدرت له فإن في مسلك الطعام الى القابضة ضيق لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلا فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى الى جوفه لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفي طعامه وإنما يختلسه إختلاسا لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعى فيها ما إزدرد من الطعم بسرعة ثم ينقل إلى القابضة على مهل وفي الحوصلة أيضا خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب ليسهل عليه

فصل

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى

التي تراها في كثير من الطير كالطاووس والدراج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الاقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هذا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم

فتأمل ريش الطاووس كيف هو فإنك تراه كنسج الثوب الرفيع من خيوط رفاع جدا قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط بل الشعرة إلى الشعرة ثم ترى النسج إذا مددته ينفتح قليلا قليلا ولا ينشق ليتداخله الهواء فينقل الطائر إذا طار فترى في

وسط الريشة عمودا غليظا متينا قد نسج عليه ذلك الثوب التي كهيئة الشعرليمسكه بصلابته وهو القصبة التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء فيحمل الطائر

فأي طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللطف ثم لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون لكانت من أدل الدلآئل واعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فإنه لم يكن ذلك لها من نفسها بل إنما هو لها ممن خلقها وأبدعها فما كذبه المعطل هو أحد البراهين والآيات التي على مثله يزداد إيمان المؤمنين وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء

فصل

تأمل هذا الطائر الطويل الساقين وأعرف المنفعة في طول ساقيه

فإنه - يرعى أكثر مرعاه في ضحضاح الماء فتراه يركز على ساقيه كانه دست فوق مركب ويتأمل ما دب في الماء فإذا رأى شيئا من حاجته خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله ولو كان قصير القائمتين كان إذا خطا نحو الصيد ليأخذه لصق بطنه بالماء فيثيره ويذعر الصيد منه فيفر فخلف له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسدعليه مطلبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق ليمكنه تناول الطعم من الأرض ولو طال ساقاه وقصرت عنقه لم يمكنه أن يتناول شيئا من الأرض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وإمكانا

ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعا معدا بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله ممايتعذر عليها إذا إلتمسته ويفوتها إذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران والأسطحة والسقوف تناوله بالهوينا من السعي فلا يشاركها فيه غير بني جنسها من الطير ولو كان ما تقتات به يوجد معدا مجموعا كله كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه

وكذلك لو وجدته معدا مجموعا لأكبت عليه بحرص ورغبة فلا تقلع عنه وإن شبعت حتى تبشم وتهلك

وكذلك الناس لو جعل طعامهم معدا لهم بغير سعي ولا تعب أدى ذلك إلى الشره والبطنة ولكثر الفساد وعمت الفواحش والبغي في الأرض

فسبحان اللطيف الخبير الذي لم يخلق شيئا سدى ولا عبثا

وانظر في هذه الطير التي لا تخرج إلا بالليل كالبوم والهام والخفاش فإن أقواتها هيئت لها في الجو لا من الحب ولا من اللحم بل من البعوض والفراش وأشبابهما مما تلقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ثم تأوى الى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل

وذلك أن هذه الضروب من البعوض والفراش وأشباههما مبثوثة في الجو لا يكاد يخلوا منها موضع منه

واعتبر ذلك بأن نضع سراجا بالليل في سطح أو عرصه الدار فيجتمع عليه من هذا الضرب شيء كثير وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس في الطير أضعف منه ولا أجهل وفيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها

حتى يحرق نفسه دليل على ذلك فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه فإذا أتى النهار إنقطعت إلى أوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها بمنزلة ليل غيرها ومع ذلك فساق لها الذي تكفل بأرزاق الخلق رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلا رزق مع ضعفها وعجزها

وهذه إحدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض فكم فيها من رزق لأمة تسبح بحمد ربها ولولا ذلك لإنتشرت وكثرتحتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار

فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وأن ذلك الذي تشاهده ليس بإتفاق ولا بإهمال من سائر وجوه الأدلة التي لا تتمكن الفطر من جحدها أصلا

وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش فهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطيور فإنه ذو أذنين ناشزتين وأسنان ودبر وهو يلد ويرضع وله جناحان يطير بهما مع الطيور ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره فإذا غابت الشمس انتشر ومن ذلك سمى ضعيف البصر أخفش والخفش ضعف البصر ولما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل

وقد زعم بعض من تكلم في الحيوان أنه ليس يطعم شيئا وإنما غذاؤه من النسيم البارد فقط وهذا كذب عليه وعلى الخلقة لأنه يبول

وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس لأنه بول غير مأكول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه على قولين : -

هما روايتان عن أحمد وبعض الفقهاء لا ينجس بوله بحال وهذا أكيس الأقوال : إذ لا نص فيه ولا يصح قياسه على الأبوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق وليس هذا موضع إستيفاء الحجج في هذه المسئلة من الجانبين

والمقصود أنه لو كان لا يأكل شيئا لم يكن له أسنان اذ لا معنى للأسنان في حق من لا يأكل شيئا

ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الأكل لم يعط الأسنان فلما كبر وإحتاج للغذاء أعين عليه بالأسنان التي تقطعه والأضراس التي تطحنه وليس في الخليقة شيء مهمل ولا عن الحكمة بمعطل ولا شيء لا معنى له

وأما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الأطباء في كتبهم ما إنتهت إليه معرفتهم حتى أن بوله يدخل في بعض الأكحال فإذا كان بوله الذي لا يخطر بالبال فيه منفعة ألبتة فما الظن بجملته

ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقة أنه رأى رخلا وهو طائر معروف قد عشش في شجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاتحة فاها لتبتلعه فبينما هو يضطرب في حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة في العش فحملها فألقاها في فم الحية فلم تزل تلتوى حتى ماتت

فصل

ثم تأمل احوال النحل وما فيها من العبر والآيات

فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها إستدارة وأحكمها صنعا فإذا إنضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ولا آله ولا بيكار وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما **قال : تعالى**

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) **النحل 68 - 69**

فتأمل - كمال طاعتها وحسن إئتمارها لأمر ربها إتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال الشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون أي يبينون العروش وهي البيوت فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة ألبتة

وتامل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم في الآية ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها ومما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون

وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا

وتأمل كيف أداها حسن الإمتثال إلى أن اتخذت البيوت أولا

فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها بإتخاذ البيوت أولا ثم بالأكل بعد ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعز عليها شيء ترعى ثم تعود

ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به فهي مؤتمره لأمره سامعة له مطيعه وله عليها تكليف وأمر ونهى وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرايه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم كما يفعل الأمير إذا إنتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها وإجتماع شملها وإنتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها

فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله أجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة

ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتأمران على جمع واحد بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض بل يصيرون يدا واحدة وجندا واحدا

فصل

ومن أعجب أمرها ما لا يهتدي له أكثر الناس ولايعرفونه

وهوالنتاج الذي يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الإستحالة فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب فإنها إذا ذهبت إلى المرعي أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على

الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهي الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم إنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئا منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتا بيتا وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيورا بإذن الله

وتلك إحدى الآياتت والعجائب التي قل من يتفطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش و البناء والنتاج

فسل المعطل من الذي أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل في طباعها ومن الذي سهل لها سبله ذللا منقادة لا تستعصي عليها ولا تستوعرها ولا تضل عنها على بعدها ومن الذي هداها لشأنها ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردته عسلا صافيا مختلفا الوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة وسمه لي من جاء به وقال : هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها

وإذا تأملت - ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور في كتبهم أصلا وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل وهو المذكور في كتب القوم ولعمر الله أنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للاخلاط وأقمع لها وأذهب لضررها وأقوى للمعدة وأشد تفريحا للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذا للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن

ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلا ولو عدم من العالم لما إحتاج إليه ولو عدم العسل لإشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن إستعمال السكر حتى هجروا العسل وإستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة

فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها فيصير أنفع له من السكر وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع وبراهين كثيرة لا تدفع ومتى رأيت السكر يجلو بلغما ويذيب خلطا أو يشفى من داء وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته

وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيرا من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته ولا ريب أن كونه شفاء وكون القرآن شفاء والصلاة شفاء وذكر الله والإقبال عليه شفاء أمر لا يعم الطبائع والأنفس فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به بل لا يزيد الطبائع الردية رداءة

وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة اليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفي بـه مـن عليـل وكم قد عوفي به من مريض وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريبا مـن مبلغـه في الشفاء وأنت ترى كثيرا من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشـفاء بـذلك أصـلا

ولقد رأيت في بعض كتـب الأطبـاء المسـلمين فـي ذكـر الأدويـة المفـردة ذكـر الصـلاة ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها فـي البـدن التـي توجـب الشـفاء وجوهـا عديـدة

ومن منافعها في الروح والقلب وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول : وقد عرض له بعض الألم فقال : له الطبيب أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال : ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها فإذا قويت عليه قهرته فقال : له الطبيب بلى فقال : إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض هذا او نحوه من الكلام
والمقصود ـ أن ترك كثير من الناس الإستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء كما أن ترك أكثرهم الإستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما **قال : تعالى** (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) **يونس 57**
فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاآن هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها
ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمرا عجيبا
وتأمل اخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال : عن العسل(فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ) **النحل 69**
وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع إستقصاء فوائدالعسل ومنافعه
فصل

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام

وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم
فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها الى المعدة فينقلب بعضه دما بإذن الله وما يسرى في عروقها وأعضائها وشحومها ولحومها
فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له إذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثقله إلى الكرش فيصير زبلا ثم ينقلب باقية لبنا صافيا أبيض سائغا للشاربين فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج الدم مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الألطف من الثقل بالطبخ الأول فإنفصل إلى الكبد وصار دما وكان مخلوطا بالأخلاط الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة والطحال والكلية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم

فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير

فصل

ثم تأمل العبرة في السمك

وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتج إليه لأنه ينغمس في الماء وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة وكسى لجده قسورا متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده

وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري فهما بحران أحدهما الطف من الآخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البر وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات فكما يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء

فسبحان من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الإنفراد بل إن **علموا فيها وجها جهلوا منها أوجها**

فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلا

ولهذا ترى في السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة وحكمة ذلك أن يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباغ لأنها في حافات الآجام جاثمة تعكف على الماء الصافي فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فإختطفته فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسماك الكبار تأكله ودواب البر تأكله

وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف واقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة ولو رأى العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصيها الا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذي لانسبة له أصلا الى ما غاب عنهم لرأي العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لايعلمها إلا هو

الجراد هو جند من جنود الله

وهذا الجراد نثرة حوت من حيتان البحر ينثره من منخريه وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندا لا مرد له ولا يحصى منه عدد ولا عدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك

فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته ويسد وجه السماء بأجنحته ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه

فسل المعطل من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه بل ينظرون إليه يستبد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الأرض قفرا منها وهم لا يستطيعون أن يردوه ولا يحولوا بينه وبينها

وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القوى فينتقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لايستطيع لذلك ردا ولا صرفا

قال : الله تعالى

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) **القصص 5 – 6**

فواحسرتاه على من لا استقامة له مع الله وإيثار لمرضاته في كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من إستضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه

ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه فذنوبه من أعظم اسباب الرحمة في حق ظالمة كما أن المسؤل إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه ولو صدق السائل لما أفلح من رده وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم

وهذا أيضا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة

فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآية باهرة حتى إن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء

ولعل هذا الفصل الإستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم إنتفاعه به جدا والله الموفق

ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص فأرسل الله عليه سيلا فذهب بالغنم فجعل يعجب فأتى في منامه فقيل : له اتعجب من أخذ السيل غنمك إنه تلك القطرات التي شبت بها البن اجتمعت وصارت سيلا

فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وأنه قائم على كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم مثقال ذرة

والأثر الإسرائيلي معروف أن رجلا كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به فركب البحر ومعه قرد له فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب ثم فتحه فجعل يلقيه دينارا في الماء ودينارا في المركب كأنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك

وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم فقال : لهم بلسان الحال منعتم الحق فمنعتم الغيث فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم

وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون

الناس عنه

فصدهم عنه كما صدوا عباده صدا بصد ومنعا بمنع

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا جوزوا إتلافا بإتلاف فقل أن ترى مرابيا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم فإن استقاموا استقامت ملوكهم وإن عدلوا عدلت عليهم وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق ونحلوا بها عليهم وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم ومن له فطنه إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء

فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئا من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولازمها قطع من الليل مظلم

فصل

حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما **قال : تعالى**

(وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) **العنكبوت 38- 40**

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم **فإنها** لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها

إقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة

واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية فأقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكرا وخداعا وفسقا فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوهم فلست من المتوسمين وإقرأ نسخة الخنازير من صور أشبهاهم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعدالرسل وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه

فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعا ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الأنسان عن رجيعة فيبادر إليه

فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقا عليهم فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين فإستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين والكفار وصرحوا بأنهم خير منهم

فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير

فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين

وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرا فأكثر من أن تذكر ها هنا . وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسي كتابا

وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الإستئصال لما كانوا أطول أعمارا وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم

فلما تقاصرت الـأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الإستئصال وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما إقتضته في وقته

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في إرسال الرسل في الأمم واحدا بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم إكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما إنتهت النبوة الى محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه صلى الله عليه وسلم أرسله إلى أكمل الأمم عقولا ومعارف وأصحها أذهانا وأغزرها علوما وبعثه بـأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه فأغنى الله لأمة بكمال رسولها وكمال شريعته وكمال عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث

ولـهذا قال : " صلى الله عليه وسلم أنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر " .

فجزم بوجود المحدثين في الأمم وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط وليس هذا بنقصان في الأمة على من قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبله فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى محدث بل إن وجد فهو صالح للمتابعة

والإستشهاد لا أنه عمدة لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث

وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون ولا تظن أن تخصيص عمر رضى الله عنه بهذا تفضيل له علي أبي بكر الصديق رضى الله عنه بل هذا من أقوى مناقب الصديق فإنه لكمال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدي الرسالة استغنى بذلك عما تلقاه من تحديث أوغيره فالذي يتلقاه من مشاكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث

فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل خلقه وأكملهم شريعة وأن أمته أكمل الأمم

وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه الى الصواب وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة الا بالله العلي العظيم

فصل

فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية

من الذي دبرك بالطف التدبير وأنت جنين في بطن أمك في موضع لا يد تنالك ولا بصر يدركك ولا حيلة لك في إلتماس الغذاء ولا في دفع الضرر فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي والتقلب على الغبراء هاج الطلق بأمك فأزعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى عالم الإبتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول والإشتمال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرد والإخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج إلى ربك من ثقلك فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه

فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد هناك وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما إلى أن خرجت فريدا وحيدا ضعيفا لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها ثم ساقه إلى تينك الخزانتين ألطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفا في طرقه ومجاريه حتى تستوفي ما في الخزانة فيجرى وينساق اليك فهو بئر لاتنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها إليك في طرق لا يهتدي إليها الطواف ولا يسلكها الرجال فمن رققه لك وصفاه وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه أعدل إحكام لا بالحار المؤذي ولا بالبارد الردي ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن

فوافاك في أشد اوقات الحاجة اليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالإداوة قد تدلى إليك وأقبل بدره عليك ثم جعل في رأسه تلك الحلمة التي هي بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ولا تتعب بإلتقامها ثم نقب لك في رأسها نقبا لطيفا بحسب إحتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفة بل جعله بقدر إقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها

فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء وأن حياتها تزاد في حياتك

فمن الذي وضع ذلك في قلبها حتى إذا قوى بدنك وإتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك وإحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك وضع في فيك آله القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها فمن الذي حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك لطفا بها ثم أعطاكها أيام أكلك رحمة بك وإحسانا إليك ولطفا بك

فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك

ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها وكلما إزددت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل المطاعم المختلفة زيد لك في تلك الآلآت حتى تنتهي إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ثم إذا إزددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهي إلى الطواحين التي هي آخر الأضراس فمن الذي ساعدك بهذه الآلآت وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء

ثم أنه إقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئا بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريح شيئا فشيئا فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك

واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سبي صغيرا من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فإنه لا يؤلمه ذلك علما كان أقرب إلى العقل كان أشق عليه وأصعب حتى إذا كان عاقلا فلا تراه إلا كالواله الحيران

ثم لو ولدت عاقلا فهيما كحالك في كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لأنك ترى نفسك محمولا رضيعا معصبا بالخرق مربطا بالقمط مسجونا في المهد عاجزا ضعيفا عما يحاوله الكبير

فكيف كان يكون عيشك مع تعلقك التام في هذه الحالة ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك ما يوجد للمولود الطفل بل تكون أنكد خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وأكثرهم فضولا

وكان دخولك هذا العالم وأنت غبي لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة

ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والإتقان لها وفي ذلك وجوه أخر من الحكمة غير ما ذكرناه

فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب والآلآت في وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ثم إنه أعطاك الأظفاروقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها

فإن أكثر العمل لما كان برؤوس الأصابع وعليها الإعتماد أعينت بالأظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذي لا يخرج باللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها

ثم جملك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد إذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمرة العقل تنتهي إليه

ثم خص الذكر بأن جمل وجهه باللحية وتوابعها وقارا وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا وفرقا بينه وبين الإناث وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الإستمتاع فالماء واحد الجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد

فمن الذي أعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثية ولا تلتفت إلى ما يقوله الجهلة من الطبائعيين في سبب الإذكار والإيناث وإحالة ذلك على الأمور الطبيعية التي لا تكاد تصدق في هذا الموضع إلا إتفاقا وكذبه اكثر من صدقها وليس إستناد الإذكار والإيناث إلا إلى محض المرسوم الإلهي الذي يلقيه الملك التصوير حين يقول : يا رب ذكر أم أنثى شقى أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيوحي ربك ما يشاء ويكتب الملك

فإذا كان للطبيعة تأثيرا في الإذكار والإيناث فلها تاثير في الرزق والأجل والشقاوة والسعادة وإلا فلا إذ مخرج الجميع ما يوحيه الله إلى الملك ونحن لا ننكر أن لذلك أسبابا أخر ولكن تلك من الأسباب التي إستأثر الله بها دون البشر **قال : الله تعالى** (**لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**) **الشورى 49 – 50**

فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال

أحدها ـ من تلد الإناث فقط

الثانية ـ من تلد الذكور فقط

الثالثة ـ من تلد الزوجين الذكر والأنثى وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرا أو أنثى

الرابعة ـ العقيم التي لا تلد أصلا

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحي ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضى الله عنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم " فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال : لم تدفعني فقلت : ألا تقول : يا رسول الله فقال : اليهودي إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله فقال : رسول الله إن اسمي محمد

الذي سماني به أهلي قال : اليهودي جئت أسالك فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أينفعك شيء إن حدثتك قال : أسمع بأذني فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال : سل فقال : اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فقال : رسول الله هم في الظلمة دون الجسر قال : فمن أول الناس إجازة قال : فقراء المهاجرين قال : اليهودي فما تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال : زيادة كبد حوت قال : فما غذاؤهم على أثرها قال : ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها قال : فما شرابهم عليه قال : من عين تسمى سلسبيلا قال : صدقت وجئت أسالك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان قال : ينفعك إن حدثتك قال : أسمع بأذني قال / جئت أسألك عن الولد قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله وإن علا مني المرأة مني الرجل أثني بإذن الله قال : اليهودي لقد صدقت وإنك لنبي ثم إنصرف فقال : رسول الله لقد سالني عن هذا الذي سالني عنه ومالي علم به حتى أتاني الله به " .

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعا فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه فيلتقى المآن على أمر قد قدره الله وشاءه فيخلق الولد بينهما جميعا وأيهما غلب كان الشبه له كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبدالله بن سلام رضى الله عنه قدوم " النبي صلى الله عليه وسلم فآتاه فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله فقال : رسول الله أخبرني بهن آنفا جبريل فقال : عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال : رسول الله أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها فقال : أشهد أنك رسول الله " .

وذكر الحديث وفي الصحيحين عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي إحتلمت قال : نعم إذا رأت الماء الأصفر فضحكت أم سلمة فقالت : أو تحتلم المرأة فقال : رسول الله فيم يشبهها الولد" .

فهذه الاحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره للآخر وعلوه عليه وإن الشبه يكون بالسبق فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحي وليس في صناعتهم أيضا ما ينافيها على أن في النفس من حديث وبان ما فيها وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبدالله بن سلام

وفي الصحيحين

من حديث عبدالله بن أبي بكررضى الله عنهما عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله وكل بالرحم ملكا فيقول : يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة فإذا أراد أن يخلقها قال : يا رب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمه " .

أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل ولم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل أولا ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه ابلغ من الشبه والله اعلم

وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاله : فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث والله اعلم .

فصل

فانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى

جميعا على وفق الحكمة فجعلت في حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المنى إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئا فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من أجزاء الجسد رقيقا ضعيفا لا يخلق منه الولد جعل له الأنثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم انضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلا لأن يكون مبدأ للتخليق ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطفاته إذا مازج غلظ ماء الرجل وشدته قوى به واستحكم ولو كان الماآن رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وإنضاجه فيها ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله ومنها أنها لما كانت محلا للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والإستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه

فصل

فارجع الآن الى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك

وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأ لها فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والإعطاء والمحاربة والدفع والرجلان لحمل البدن والسعي والركوب وإنتصاف القامة والعينان للإهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما في السماوات والأرض وآياتهما وعجائبهما والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه واللسان للبيان والترجمة عنك والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك واللسان يبلغ عنك والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه إصلاحا آخر وطبخا آخر غير الإصلاح والطبخ الذي توليته من خارج فأنت تعاني إنضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن أنه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وإنضاج آخر وطباخه الداخل ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدي إليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليه نيرانا تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهي في ألطف موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهي أشد حرارة من النار وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدا حتى يجعلها ماء ذائبا وجعل الكبد للتخليص واخذ صفو الغذاء والطفه

ثم رتب منها مجاري وطرقا يسوق بها الغذاء الى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر وجعل المنازل والأبواب لإدخال ما ينفعك وإخراج ما يضرك وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك فهذه خزانة للطعام وهذه خزانة للحرارة وهذه خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخزائن الأخر فجعل خزائن للمرة السوداء وأخرى للمرة الصفراء وأخرى للبول وأخرى للمنى

فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها في البدن فإنه إذا استقر فيها إشتملت عليه وإنضمت فتطبخه وتجيد صنعته ثم تبعثه إلى الكبد في مجار دقاق وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجاري غشاء رقيقا كالمصفات الضيقة الأبخاش تصفية فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذ قبلته الكبد أنفذته إلى البدن كله في مجار مهيأ قلة بمنزلة المجاري المعدة للماء ليسلك في الأرض فيعمها بالسقي ثم يبعث ما بقي من الخبث والفضول إلى مغايض ومصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به الى المثانة

فمن ذا الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير وكأني بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار

فلو أراد الله أن يهديك لسالت نفسك بنفسك وقلت : أخبريني عن هذه الطبيعة أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فإن قالت : لك بل هي ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل : لها هذا هو الخالق البارئ المصور فلم تسمينه طبيعية ويا الله من ذكر الطبائع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على السن رسله ودخلت في جملة العقلاء والسعداء

فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى وإن قالت تلك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد

فقل : لها هذا ما لا يصدقه ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين والمبرسمين ثم قل : لها بعد ولو ثبت لك ما أدعيت

فمعلوم ـ أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربها ومبدعها وخالقها ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهي إذا من أدل الدلآئل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا مخالفتك العقل والفطرة ولو حاكمناك إلى الطبيعة لرأيناك أنك خارج عن موجبها فلا أنت مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلا وكفى بذلك جهلا وضلالا

فإن رجعت إلى العقل وقلت : لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا تدبير متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده

قيل : لك فإذا أقررت ويحك بالخلاق العظيم الذي لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أوعقلا فعالا أو موجبا بذاته وقل هذا هو الله الخالق البارئ المصور رب العالمين وقيوم السماوات والأرضين ورب المشارق والمغارب الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن ما صنع فمالك جحدت أسماءه وصفاته وذاته أضفت صنيعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به إضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولا بد والحمد لله رب العالمين على أنك لو

تأملت قولك : طبيعة ومعنى هذه اللفظة لدلك على الخالق الباريء لفظها كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أي مطبوعة ولا يحتمل غيرهذا البتة لأنها على بناء الغرائز التي ركبت في الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه

ومعلوم - أن طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ الطبيعة على البارئ تعالى كما دل معناها عليه والمسلمون يقولون : إن الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه ثم أنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء فيسلبها تاثيرها إذا أراد ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء ليرى عباده أنه وحده الخالق البارئ المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) **يس 82**

.

وإن الطبيعة التي إنتهى نظر الخفافيش إليها إنما هي خلق من خلقه بمنزلة سائر ملخوقاته فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أوعقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جعلت له حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) **الأعراف 54**

فصل

فأعد النظر في نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير في تركيب البدن

ووضع هذه الأعضاء مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا تنتشر في البدن فتفسده .

ثم تأمل الحكمة البالغة في تنميتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ولو أن صائغا أخذ تمثالا من ذهب أو فضة أو نحاس فأراد أن يجعله أكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك إلا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى والرب تعالى ينمي جسم الطفل وأعضاءه الظاهرة والباطنة وجميع أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يتزايل ولا ينفك ولا ينقص

وأعجب من هذا كله تصويره في الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي ولا تصل إليه الآلآت فيخرج بشرا سويا مستوفيا لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفي الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين وما كرر عليك في كتابه مبدأ خلقك وإعادته ودعاك إلى التفكير فيه إلا لما بك من العبرة والمعرفة ولا تستطل هذا

الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فإن الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة

فانظر إلى بعض ما خصك به وفضلك به على البهائم المهملة إذ خلقك على هيئة تنتصب قائما وتستوي جالسا وتستقبل الأشياء ببدنك وتقبل عليها بجملتك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير ولو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وجهها لم يظهر لك فضيلة تمييز وإختصاص ولم يتهيأ منك ما تهيأ من هذه النسبة

فصل

تكريم بنى آدم

قال : الله تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) الإسراء **70**

فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل وإكتساب العلوم بالإستدلال والفكر وإقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والإنقياد فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هنا وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) **المؤمنون 14**

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه كما **قال : تعالى** (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) **الجاثية 12 – 13**

وقال : تعالى

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) **إبراهيم 32 -34**

فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعا وأملأ صواعا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضيا بعيش بني جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدا منهم يقول لي أسوة بهم وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر وليست نفائس

البضائع إلا لمن إمتطى غارب الإغتراب وطوف في الآفاق حتى رضى من الغنيمة بالإياب فإستلان ما إستوعره البطالون وأنس بما إستوحش منه الجاهلون

فصل

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك

وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ولم تجعل في الأعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات ولا جعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك التلفت والإطلاع على الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها فالرأس صومعة الحواس

ثم تأمل الحكمة - في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس ليلقى خمسا بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة فجعل البصر في مقابلة المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات واللمس في مقابلة الملموسات فأي محسوس بقي بلا حاسة ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ولما كان ما عداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الاخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث يقولون : في المفكر المتأمل ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته الست وأرادوا بذلك أنه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها تكون واسطة في إحساسها فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئا وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة

ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الزائقة به طعوم الأشياء

ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها لأنها إنما تدركها بالإجتماع والملامسة فلم تحتج إلى واسطة

فصل

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره

فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من إستفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الإعتبار والنظر في عجائب ملك الله هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر

بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله ولا يتمكن من هرب أن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى

ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على وضم ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة

ومن كمال لطفه أن عكس نوربصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدسا وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متاسف هذا حكم من ولد أعمى

فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الإنتفاع ببصره فهذا له حكم آخر

وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب وحي كميت وقريب كبعيد

وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل إختلالا لأموره الضرير أو الأطرش وذكروا في ذلك وجوها وهذا مبني على أصل آخر وهو أي الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر

وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق في ذلك فأي الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى والذي يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضررا وأسلمهما دينا وأحمدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضررا في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوا عاقبة

فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وإنسدت عليه أبواب العلوم النافعة وإنفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر

ولهذا لم يكن في الصحابة رضى الله عنهم أطرش وكان فيهم جماعة أضراء وقل أن يبتلى الله أولياءه بالطرش ويبتلى كثيرا منهم بالعمى

فهذا فصل الخطاب في هذه المسئلة فمضرة الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه

فصل

وأما من عدم البيانين بيان القلب وبيان اللسان

فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمة بل هي أحسن حالا منه فإن فيها ما خلقت له من المنافع والمصالح التي تستعمل فيها وهذا يجهل كثيرا مما تهتدي إليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكف البهائم أنفسها عنه وأن عدم بيان اللسان دون بيان القلب ومن عدم خاصة الإنسان وهي النطق إشتدت المؤمنة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذي يرى ما هو محتاج إليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله فكم لله على عبده من نعمة سابغة فبهذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله عليها ولو فقد شيئا منها لتمنى أنه له بالدنيا وما عليها فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها

ولوعرضت عليه الدنيا ما فيها بزوال واحدة منها لأبي المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن (إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) **إبراهيم 34**

فصل

ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك

آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما في ذلك من الحكم البالغة فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منهما واحدا فقط إذ لا مصلحة في كونه أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقل بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد ثم إن الانسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقي الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وأبصر وسمع بهما معا كلاما واحدا وسمعا واحدا وبصرا واحدا كان الآخر فضله لا فائدة فيه وإن إختلف إدراكهما إختلفت عليه أحواله وإدراكاته

وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا وإن تكلم بإحدهما دون الآخر

فكذلك وإن تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر باي الكلامين يأخذ

وكذلك لو كان له هنوان وفمان لكان مع قبح الخلقة أحدهما فضلة لا منفعة فيه

وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين

فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينه والجمال والزينة عليها بادية فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان

وأما اليدان والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضروري للإنسان لا تتم مصلحته إلا بذلك ألا ترى من قطعت إحدى يديه أو رجليه كيف تبقى حاله وعجزه

فلو أن النجار والخياط والحداد والخباز والبناء وأصحاب الصنائع التي لا تتأتى إلا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته

فإقتضت الحكمة أن أعطى من هذا الضرب من الجوارح والأعضاء إثنين إثنين وكذلك أعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته إلا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك

وأما الاعضاء الثلاثة فهي جوانب أنفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم

وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التي هي مجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين

وكذلك أجفان العينين فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم

فإقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هي عليه من العدد والشكل والهيئة فلو زادت أو نقصت لكان نقصا في الخلقة

ولهذا يوجد في النوع الانساني من زائد في الخلقة وناقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد في خلقه ما لا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج

إليه كما يراه في غيره فهو أجدر ان لم يزداد شكرا وحمدا لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأنه يخلق ما يشاء

فصل

من أين للطبيعة هذا الإختلاف والفرق الحاصل

في النوع الإنسانى بين صورهم فقل أن يرى إثنان متشابهان من كل وجه وذلك من أندر ما في العالم بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطير وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الظباء والثلة من الغنم والذود من الإبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منهما وبين الآخر إلا بعد طول تأمل أو بعلامة ظاهرة والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد إثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقة واحدة بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة

والحكمة البالغة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعينهم وحلاهم لما يجرى بينهم من المعاملات فلولا الفرق والإختلاف في الصور لفسدت أحوالهم وتشت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولا البائع من المشتري ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للإختلاط ولا هي تعرف بعلها من غيره وفي ذلك أعظم الفساد والخلل

فمن الذي ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف

فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل في الطبيعة إقتضاء هذا الإختلاف والإفتراق في النوع وأين قول الطبائعيين أن فعلها متشابه لأنها واحدة في نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها

فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا (**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُو**) **الحج 46**

وربما وقع في النوع الإنساني تشابه بين إثنين لا يكاد يميز بينهما فتعظم عليهم المؤنة في معاملتهما وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق وإذا كان هذا يعرض في التشابه في الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى

فما الظن لو وضع التشابه في الخلقة والصورة ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها (**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**) **المؤمنون 14**

الذي وسعت حكمته كل شيء

فصل

ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل

إذا أدركا إشتركا في إنبات العانة ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قيما على المرأة وجعلها كالخول له والعاني في يديه ميزه عليها بما فيه له المهانة والعز والوقار والجلالة لكماله وحاجته إلى ذلك ومنعتها المرأة لكمال الإستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر وإشتراكا في سائر الشعور للحكمة والمنفعة التي فيها

فصل

ثم تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق

وتهيئة آلآته والكلام وإنتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة الباهرة في هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك في أنبوبة الحنجرة حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات وأجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى في قصبة واحدة حتى ينتهي إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كله أمره ونهيه وخبره وإستخباره ونظمه ونثرة وخطبه ومواعظه وفضوله فمنه المضحك ومنه المبكي ومنه المؤيس ومنه المطمع ومنه المخوف ومنه المرجي والمسلى والمحزن والقابض للنفس والجوارح والمنشط لها والذي يسقم الصحيح ويبرئ السقيم ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء وتستمال به القلوب ويؤلف به بين المتباغضين ويوالي به بين المتعاديين ومنه ما هو بضد ذلك ومنه الكلمة التي لا يلقى لها صاحبها بالا يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب والكلمة التي لا يلقى لها بالا صاحبها يركض بها في أعلا عليين في جوار رب العالمين

فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ولا أين ينتهي ولا أين مستقره هذا إلى ما في ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التي لا يحصيها إلا الله فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته فتسمع لغات مختلفة كلاما منتظما مؤلفا ولا يدري كل منهم ما يقول الآخر واللسان الذي هو جارحة واحد في الشكل والمنظر وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية في ذلك كالآية في الأرض التي تسقى بماء واحد وتخرج مع ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أن في كل منهما آيات **فقال : تعالى** (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) **الروم 22**

وقال : تعالى

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) **الرعد 4**

فانظرالآن في الحنجرة كيف هي كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التي تخرج منها ومن اللسان ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ومن عرضت له آفة في حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية

وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار والرئة بالزق الذي ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه والفضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التي تقبض على الزق حتى يخرج الهواء في القصب والشفتين والأسنان التي تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التي تختلف على المزمار فتصوغه ألحانا

والماقطع التي ينتهي إليها الصوت بالأبخاش التي في القصبة حتى قيل إن المزمار إنما أتخذ على مثال ذلك من الإنسان

فإذا تعجبت من الصناعة التي تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التي أخرجت تلك الحروف أمن اللحم والدم والعروق والعظام ويا بعد ما بينهما ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب

فإذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظم من ذلك مما لا يدركه القياس

ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاة والأسنان فمن الذي ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم

فصل

وفي هذه الآلآت مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام

ففي الحنجرة مسلك النسيم البارد الذي يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وفي اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز بها بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه في الحلق وفي الأسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم وفيها إسناد الشفتين وإمساكهماعن الإسترخاء وتشويه الصورة

ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخي شفتاه وفي الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذي إليه ينتهي إليه ما يخرج من الجوف ومنه يبتدي ما يلج فيه فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء وهما أيضا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك

وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف الى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة في أعمال شتى هذا

ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجاب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل قد لف بحجب وأغشيه بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الإضطراب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التي تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التي على رأس المحارب ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى وجمالا وزينة له

فسل المعطل من الذي حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ما أودعه ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانة وجعلها معدن الحواس والإدراكات ومن الذي جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأشفار كالأشراج والأهداب كالرفوف فوف عليها إذا

فتحت ومن الذي ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السماوات سبعا وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة

فلو إختلت طبقة منها لإختل البصر ومن شقهما في الوجه أحسن شق وأعطاهما أحسن شكل وأودع الملاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطليعة وحارسا للبدن ورائدا يرسله كالجند في مهماته فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره

ومن أودع النور الباصر فيه في قدر جرم العدسة فيرى فيه السماوات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات وجعلهما في أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيتة للبدن ومن حجب الملك في الصدور وأجلسه هناك على كرسي المملكة وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له فهي مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته فلا تستطيع منه خلاصا ولا خروجا عن أمره فمنها رسوله ومنها بريده ومنها ترجمانه ومنها أعوانه وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف في غير عمله حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر في خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا

فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار **قال : تعالى** (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) **الذاريات 20 - 21**

فدعا عباده إلى التفكر في أنفسهم والإستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عبيد ولا يشعر به ولله ما خلق له وهيأ له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب

فأما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم

فلو عقل هذا السلطان ما هيأ له لضن بملكه ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمرا كان مفعولا

فصل

ومن جعل في الحلق منفذين أحدهما للصوت والنفس الواصل الى الرئة

والآخر للطعام والشراب وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل بينهما حاجزا يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لا تنى ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجا تقبضها لكيلا تجرى جريا دائما فتفسد على الإنسان عيشه ويمنع الناس من مجالسه بعضهم بعضا ومن جعل المعدة كأشد ما يكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها

فلو كانت لحما غضا لأنطبخت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التي تحتها ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة ومن حصن المخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولا تذوب ومن جعل الدم السيال محبوسا محصورا في العروق بمنزلة الماء في الوعاء ليضبط فلا يجري ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات ومن جعل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد إنكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه وليتعذر على الهواء النفوذ إليه قبل أن يمسك وليمسك ما عساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقيها من الأرض فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل ومن جعل ماء العينين ملحا يحفظها من الذوبان وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهواء والبعوض وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها ومن جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع كما أن البناء الحكيم بجعل موضع التخلى في أستر موضع في الدار

وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزا من خلفه ولا ناشزا بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض ومن جعل الأسنان حدادا لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضا لرضه وطحنه ومن سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الآدمي لأنها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لألمته وشق عليه أخذ ما شاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين إما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وإما مقاساة الألم والوجع عند أخذها ومن جعل باطن الكف غير قابل لإنبات الشعر لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالكف

ولهذه الحكمة سلب عن الشفتين وكذلك باطن الفم وكذلك أيضا القدم أخمصها وظاهرها لأنها تلاقي التراب والوسخ والطين والشوك

فلو كان هناك شعر لأذى الإنسان جدا وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان وليس هذا للإنسان وحده بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة

أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة

ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائبون للخلقة فيما يطعنون به عابوا الشعور تحت الآباط وشعر العانة وشعر باطن الأنف وشعر الركبتين وقالوا : أي حكمة فيها وأي فائدة ؟

وهذا من فرط جهلهم وسخافة عقولهم فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها بل لا نسبة لما علموه إلى ما جهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفي عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق وما مثل هؤلاء الحمقى النوكي إلا كمثل رجل لاعلم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب بل ولا الحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الإعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من ألآتهم وصنائعهم وترتيب صناعتهم فخفيت عليه فجعل كل ما خفي عليه منها شيء

قال : هذا لا فائدة فيه وأي حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم ويفوقهم فيها فما الظن بمن بهرت حكمته العقول الذي لا يشاركه مشارك في حكمته كما لا يشاركه في خلقه فلا شريك له بوجه فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عيارا عليها فما أدركه اقربه وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين ولله في كل ما خفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لا تدفع ولا تنكر

فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة ما اقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ألا ترى أن العشب ينبتفي مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة

ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن وهي أقبل لنبات الشعر وأهيأ فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعرا ولو حبست في داخل البدن لأضرته وآذت باطنه فخروجها عين مصلحة الحيوان وإحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكمالها ولهذا يكون إحتباسه لفساد في الطبيعة ونقص فيها ألا ترى أن من إحتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب

فإذا شاهدت ذلك في الشعر الذي عرفت بعض حكمته فمالك لا تعتبره في الشعر الذي خفيت عليك حكمته ومن جعل الريق يجري دائما إلى الفم لا ينقطع عنه ليبل الحلق واللهوات ويسهل الكلام ويسيغ الطعام

قال : بقراط الرطوبة في الفم مطية الغذاء

فتأمل حالك عند ما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التي لا يستغنى عنه

فصل

ثم تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة

فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا : في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح

وأيضا فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجاري النفس ويفتح العروق ويصابها ويقوى الأعصاب وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه

فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذي سببه ورود الألم المؤذي وأنت لا تعرفها ولا تكاد تخطر ببالك

فهكذا إيلام الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفي على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام في حكمه اضطراب الأرشية وسلكوا في هذا الباب مسالك فقالت : طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة وكلما سئلوا عن شيء أجابوا (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) **الأنبياء 23**

وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها وإنما المراد بالآية إفراده بالألوهية والربوبية وإنه لكمال حكمته لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لا يفعل شيئا سدى ولا خلق شيئا عبثا وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ألا ترى الى **قوله : تعالى**

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) **الأنبياء 21 – 23**

كيف ساق الآية في الإنكار على من إتخذ من دونه آلهة لا تساويه فسواها به مع أعظم الفرق **فقوله : تعالى** (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) **الأنبياء 23**

إثبات لحقيقة الإلوهية وإفراده له بالربوبية والألوهية **وقوله : تعالى** (وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

في صلاح تلك الألوهية المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان

فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب

وقالت : طائفة الحكمة في إبتلائهم تعويضهم في الآخرة بالثواب التام

فقيل : لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام

فأجابوا - بأن توسط الإيلام في حقهم كتوسط التكاليف في حق المكلفين

فقيل - لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلام أطفال الكفار

فأجابوا - بأنا لا نقول أنهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم

وكذلك الكلام معهم في مسئلة الأطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فأورد عليهم ما لا جواب لهم عنه وهو إيلام أطفالهم الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفر

فإن هذا لا تعويض فيه قطعا ولا هو عقوبة على الكفر فإن العقوبة لا تكون سلفا وتعجيلا فحاروا في هذا الموضع وإضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل

وقالت طائفة ثالثة - هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وأن تكلف الجواب عنه إلزام ما لا يلزم فإن هذه الآلآم وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكا عنها فهي كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم

والضعيف والعجز فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع والحاجة إلى الشرب عند الظمأ وإلى النوم والراحة عند التعب فإن هذه الآلآم هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان فلو تجرد عنها لم يكن إنسانا بل كان ملكا أو خلقا آخر وليست آلآم الأطفال بأصعب من آلآم البالغين لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل

وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة فلو لم يخلق كذلك لكان خلقا آخر فيرى أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فإيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحردون ذلك او فوقه وما خلق الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة

قالوا : فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم ؟

فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه في عالم الإبتلاء والإمتحان من مادة ضعيفة فهي عرضة للآفات وركبة تركيبا معرضا للأنواع من الآلآم وجعل فيه الأخلاط الأربعة التي لا قوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها وهي لا محالة توجب إمتزاجا وإختلاطا وتفاعلا يبغى بعضها على بعض بكيفيته تارة وبكميته تارة وبهما تارة وذلك موجب للالآم قطعا ووجود الملزوم بدون لازمه محال

ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصلحه دفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة فأحوج النوع بعضه إلى بعض فحدث من ذلك الإختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض فحدث من ذلك الآلآم والشرور بنحو ما يحدث من إمتزاج أخلاطه وإختلاطها وبغى بعضها على بعض والآلآم لا تتخلف عن هذا الإمتزاج أبدا إلا في دار البقاء والنعيم المقيم لا في دار الإبتلاء والإمتحان

فمن ظن أن الحكمة في أن تجعل خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن باطلا بل الحكمة التامة البالغة إقتضت أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها وراحتها بعنائها ولذتها بآلآمها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض كما قال :القائل : -

أصبحت في دار بليات أدفع آفات بآفات

ولقد صدق فإنك إذا فكرت في الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به رأيته يدفع بها ما قابله من الآلآم والبليات أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع وبالشرب ألم العطش وباللباس ألم الحر والبرد وكذا سائرها

ومن هنا قال : بعض العقلاء أن لذاتها لنا هي دفع الآلآم لا غير

فاما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر غير هذه فوجود هذه الآلآم واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد

وأن الحكمة التي إقتضت ذلك هي أولى بإقتضاء دارين دار خالصة للذات لا يشوبها الم ما ودار خالصة للآلآم لا يشوبها لذة ما والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار أفلا ترى كيف دلك ذلك مع ما أنت مجبول عليه في هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ورأيت شواهدهما وأدلة وجودهما من نفسك حتى كأنك تعاينهما عيانا

وانظر كيف دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار

فتأمل - كيف قاد النظر في حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وما أخبروا به تفصيلا يدل عليه العقل مجملا

فأين هذا من مقام من أداء علمه إلى المعارضة بين ما جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته ولكن تلك العقول كادها باريها ووكلها إلى أنفسها فحلت بها عساكر الخذلان من كل جانب

وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب والله المحمود المسؤل تمام نعمته فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة إيلام الأطفال لعلك لا تظفر بها في أكثر الكتب

فارجع الآن إلى نفسك وفكر في هذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي الذي يقتضيه ويستحثه فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والأعضاء وإجمام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة فتجد هذه الدواعي تستحث الإنسان لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير إختياره وذلك عين الحكمة

فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعي هذه المستحثات إذا أراد لأوشك ان يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لا يشعر كما إذا إحتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم به الداء اهلكه

فإقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته وترد عليه بغير إختياره ولا إستدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه

ثم انظر إلى ما يعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأعطى القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضي معلومها من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ثم أعطى القوة الممسكة التي تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه ثم أعطى القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتهضمه عن المعدة ثم أعطى القوة الدافعة وهي التي تدفع ثقله وما لا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهكه

فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك اليها ومن جعلها خادما لك ومن أعطاها أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل واحد ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضا فمن كان يحول بينه وبين ذلك فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركا لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذي القاتل لو إنحبس يخرج أولا فأولا فيستريح البدن فيخف وينشط

فتأمل ـ كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه قد وكل بتلك الدار أقواما يقومون بمصالحها فبعضهم لإقتضاء حوائجها وإيرادها عليها وبعضهم لقبض الوارد وحظفه وخزنه إلى أن يهيأ ويصلح وبعضهم يقبضه فيهيؤه ويصلحه ويدفعه إلى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجاتهم وبعضهم لمسح الدار وتنظيفها وكنسها من المزابل والأقذار

فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدار أنت والحشم والخدم الأعضاء والجوارح والقوام عليها هذه القوى التي ذكرناها تنبيه فرق بين نظر الطبيب والطبائعي في هذه الأمور فنظرهما فيها مقصور على النظر في حفظ الصحة ودفع السقم فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلآلتها على خالقها وباريها وما له فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والآلآء التي دعا العباد إلى شكرها وذكرها

تنبيه : ثم تأمل ـ حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان

الذي خص به نوع الإنسان وما له فيهما من الحكم وما للعبد فيهما من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليه الخلل في أموره كلها ولم يعرف ماله وما عليه ولا ما أخذ ولا ما أعطى ولا ما سمع ورأى ولا ما قال ولا ما قيل له ولا ذكر من أحسن إليه ولا من أساء اليه ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه ولا من ضره فينأى عنه ثم كان لا يهتدي إلى الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علما ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئا على ما مضى بل كان خليقا أن ينسلخ من الإنسانية أصلا

فتأمل ـ عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلا عن جميعهن ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان

فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ولا إنقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا نقمة من حاسد

فتأمل ـ نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله في كل واحد منهما ضربا من المصلحة تنبيه

ثم تأمل ـ هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خلق الحياء الذي هو من أفضل الاخلاق وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهم الظاهرة كما أنه ليس معه من الخير شيء ولولا هذاالخلق لم يقر الضيف ولم يوف بالوعد ولم يؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه ولا ستر له عورة ولا إمتنع من فاحشة وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق حقا ولم يصل له رحما ولا بر له والدا

فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها

وفي الترمذي وغيره مرفوعا

" استحيوا من الله حق الحياء قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما حق الحياء قال : أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وتذكر المقابر والبلى " .
وقال : " صلى الله عليه وسلم "إذا لم تستح فاصنع ما شئت " .
وأصح القولين : فيه قول : أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله : تعالى (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) **فصلت 40**

وقوله : تعالى (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا) **المرسلات 46**

وقالت : طائفة هو إذن وإباحة والمعنى إنك إذا أردت أن تفعل فعلا
فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح
وعندي ـ أن هذا الكلام صورة صرة الطلب ومعناه معنى الخبر وهو في قوة قولهم : من لا يستحى صنع ما يشتهى
فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو في معنى الخبر والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ماشاء وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكته بديعة جدا وهي أن للإنسان آمرين وزاجرين آمروزاجر من جهة الحياء
فإذا أطاعه إمتنع من فعل كل ما يشتهي وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع أمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ولا بد فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لا يستحي صنع ما يشتهي
تنبيه : ثم تأمل ـ نعمة الله على الإنسان بالبيانين البيان النطقي والبيان الخطي وقد إعتد بهما سبحانه في جملة من إعتد به من نعمه على العبد فقال : تعالى في أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم
(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) **العلق 1 – 5**

فتأمل ـ كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ واوضحه وأحسنه فذكر : ـ
أولا ـ عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي .ثم ذكر
ثانيا ـ خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه ها هنا من العلقة وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار أو مادة الفرع وهو الماء المهين وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة
فإنه كان قبلها نطفة فأول إنتقالها إنما هو إلى العلقة .ثم ذكر
ثالثا ـ التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين ولولا الكتابة لإنقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن وتخبطت الأحكام ولم يعرف الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم

من قلوبهم فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان فنعمة الله عن وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة

فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله إياه وزيادة في خلقه وفضله فهو الذي علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم

فإن علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به واللسان الذي يترجم به والبنان الذي يحط به ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعلم بالقلم فوقف وقفة في حال الكتابة **وتأمل** - حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد وضعته على القرطاس وهو جماد فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل

فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والتعليم بالقلم يتسلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي

فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب ودل قوله : (خَلَقَ) على أنه يعطى الوجود العيني

فدلت هذه الآيات مع إختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعليما وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقا خاصا وتعليما خاصا وتعليما عاما وذكر من صفاته ها هنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفا ومنه كل خير فعلا فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعته إلى ذلك وهو الغني الحميد **وقوله : تعالى** (الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) **الرحمن 1 - 4**

دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها فقوله : تعالى (خَلَقَ الْإِنسَانَ)

إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني وخص الإنسان بالخلق لما تقدم **وقوله : تعالى** (عَلَّمَ الْقُرْآنَ) إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه ثم **قال : تعالى** (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

والبيان يتناول مراتب راتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا

أحدها - البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات

الثاني - البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره

الثالث ـ البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين للسامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيرا ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة **كقوله : تعالى** (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) **الإسراء 36**

وقوله : تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) **النحل 78**

ويذم من عدم الإنتفاع بها في إكتساب الهدى والعلم النافع **كقوله : تعالى** (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) **البقرة 18**

وقوله : تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) **البقرة 7**

وقد تقدم بسط هذا الكلام

تنبيه ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الانسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ومنع عنه علم ما لا حاجة له به فجهله به لا يضر وعلمه به لا ينتفع به إنتفاعا طائلا ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكلما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أوتعقله بقلبك وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم اجلي منها وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلآلته

ولهذا قالت : الرسل لأممهم

(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) **إبراهيم 10**

فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه ونصب من الأدلة على وجوده وحدانيته وصفات كماله والأدلة على اختلاف أنواعها ولا يطيق حصرها إلا الله ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا **يقول : تعالى** (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) **الذاريات 55**

وقوله : تعالى (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ) **الأعلى 9**

وقوله : تعالى (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) **الغاشية 21**

وقوله : تعالى (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) **المدثر 49**

وهو كثير في القرآن ومفصلين لما في الفطرة والعقل العلم به جملة

فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإسائته مودعا في الفطرة مركوزا فيها

فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدنيه ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب

ولكنها لما فسدت وإنحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ما جحدت فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فإنقادوا طوعا وإختيارا ومحبة وإذعانا بما جعل من شواهد ذلك في قلوبهم حتى إن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها ومعذرين ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا نحتج على الله بأنه ما أرشدها ولا هداها فيحق القول عليها بإقامة الحجة فلا يكون سبحانه ظالما لها بتعذيبها وإشقائها وقد بين ذلك سبحانه في **قوله : تعالى** (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) **يس 69 – 70**

فتأمل - كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطر ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة في فطرته فلما ذكرته الرسل ونبهته رأى ما أخبروه به مستقرا في فطرته شاهدا به عقله بل وجوارحه ولسان حاله وهذا أعظم ما يكون من الإيمان وهو الذي كتبه سبحانه في قلوب أوليائه وخاصته **فقال : تعالى** (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ) **المجادلة 22**

فتدبر - هذا الفصل فإنه من الكنوز في هذا الكتاب وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر ولله الحمد والمنه

والمقصود - أن الله سبحانه أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها لعظم حاجته في معاشه ومعاده إليها ثم وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده ونوره في العالم ما لوا إجتمعت عقول العالمين كلهم فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أن يقترحوا شيئا أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخليقة في معاشها ومعادها

فهو أعظم آياته وأوضح بيناته وأظهر حججه على أنه الله الذي لا إله إلا هو وإنه المتصف بكل كمال المنزه عن كل عيب ومثال فضلا عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لتكثير طرق الهدى وقطع المعذرة وإزاحة العلة والشبهة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة (وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) **الأنفال 42**

فأثبت في الفطرة حسن العدل والإنصاف والصدق والبر والإحسان والوفاء بالعهد والنصيحة للخلق ورحمة المسكين ونصر المظلوم ومواساة أهل الحاجة والفاقة وأداء الأمانات ومقابلة الإحسان بالإحسان والإساءة بالعفو والصفح والصبر في مواطن الصبر والبذل في مواطن البذل والإنتقام في موضع الإنتقام والحلم في موضع الحلم والسكينة والوقار والرأفة والرفق والتؤدة وحسن الأخلاق وجميل المعاشرة مع

الأقارب والأباعد وستر العورات وإقالة العثرات والإيثار عند الحاجات وإغاثة اللهفات وتفريج الكربات والتعاون على أنواع الخير والبر والشجاعة والسماحة والبصيرة والثبات والعزيمة والقوة في الحق واللين لأهله والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم والإصلاح بين الناس والسعي في إصلاح ذات البين وتعظيم من يستحق التعظيم وإهانة من يستحق الإهانة وتنزيل الناس منازلهم وإعطاء كل ذي حق حقه وأخذ ما سهل عليهم وطوعت به انفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ولإرشاد ضالهم وتعليم جاهلهم وإحتمال جفوتهم وإستواء قريبهم وبعيدهم في الحق فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيدا وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيبا قريبا إلى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات والمناكحات والجنايات وما أودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وأن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب إليه وإيثاره على ما سواه .

وأثبت في الفطر علمها بقبيح أضداد ذلك ثم بعث رسله في الأمر بما أثبت في الفطر حسنه وكماله والنهي عما أثبت فيها قبحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكلمة مطابقة التفصيل بجملته وقامت وشواهد دينه في الفطرة تنادي للإيمان حي على الفلاح وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجي ظلم الإباء كما صدع الليل ضوء الصباح وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متهم ولا معرض للجراح

فصل

وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم

بقدرحاجاتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس وضروب الصنائع وإستنباط المياه وعقد الأبنية وصنعة السفن وإستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها وتركيب الأدوية وصنعة الأطعمة ومعرفة ضروب الحيل في صيد الوحش والطير ودواب الماء والتصرف في وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم ثم منعهم سبحانه علم ما سوى ذلك مما ليس في شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ما كان وكل ما يكون والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وذرات الرمال ومساقط الأوراق وعدد الكواكب ومقاديرها وعلم ما فوق السماوات وما تحت الثرى وما في لجج البحار وأقطار العالم وما يكنه الناس في صدورهم وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد إلى سائر ما عزب عنهم علمه

فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر أمره وجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع وأقلهم صوابا فترى عند من لا يرفعون به رأسا من الحكم والعلم الحق النافع ما لا يخطر ببالهم أصلا وذلك من حكمة الله في خلقه وهوالعزيز الحكيم ولا يعرف هذا إلا من إطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال وضروب المحال وفنون الوساوس والهوى والهوس والخبط وهم (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) **المجادلة 18**

فالحمد لله الذي من على المؤمنين

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) **آل عمران 164**

فصل

ومن حكمته سبحانه ما منعهم من العلم علم الساعة ومعرفة آجالهم

وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت فلولا طول الأمل لخربت الدنيا وإنما عمارتها بالآمال وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالإنهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد ويقول : إذا قرب الوقت أحدثت توبة وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعالى عز وجل من عباده ولا يقبله منهم ولا تصلح عليه أحوال العالم ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي إقتضته حكمته وسبق في علمه

فلو أن عبدا من عبيدك عمل على أن يستحضك أعواما ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك

وكذلك سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الإنتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع **قال : تعالى** (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) **النساء 18**

وقوله : تعالى

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) **غافر 84 – 85**

والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه لعلمه تعالى بضفعه وغلبة شهوته له وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له فهو يجيب داعي النفس تاره وداعي الإيمان تارات

فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفا ولا يدع لله شهوة وهو فرح مسرور يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب

فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة ولا يوفق لها فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفا وتعجيلا ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى إنقضاء الأجل

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والإستمرار على ذلك شديد على النفس صعب عليها أثقل من الجبال ولا سيما إذا إنضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدا بنسيئة ولا عاجلا بآجل

كما قال : بعض هؤلاء

وقد سئل أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا فقال : لا هذا ولا هذا ولكن ربع درهم من أول أمس

فحرام على هؤلآء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله فإذا بلغ العبد حد الكبر وضعفت بصيرته ووهت قواه وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيه وضعفا في إيمانه صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها فإن كثرة المزاولات تعطى الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي وكلما صدر عنه واحد منها أثرا أثرا زائدا على أثر ما قبله فيقوى الأثران وهلم جرا فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه لم يتطهر للقدوم على الله فما ظنه بربه ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان لقبلت توبته ومحيت سيئاته ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ولا شيء أشهى لمن إنتقل الى الله على هذه الحال من التوبة ولكن فرط في أداء الدين حتى نفذ المال ولو أداه وقت الإمكان لقبله ربه وسيعلم المسرف والمفرط أي ديان أدان وأي غريم يتقاضاه ويوم يكون الوفاء من الحسنات فإن فنيت فيحمل السيئات فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ اعمارهم فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه فينكف عما يضره في معاده ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم

فإن قلت : فها هو مع كونه قد غيب عنه مقدار أجله وهو يترقب الموت في كل ساعة ومع ذلك يقارف الفواحش وينتهك المحارم فأي فائدة وحكمة حصلت بستر أجله عنه ؟

قيل : لعمر الله إن الأمر كذلك وهو الموضع الذي حير الألباب والعقلاء وإفترق الناس لأجله فرقا شتى ففرقة أنكرت الحكمة وتعليل أفعال الرب جملة وقالوا : بالجبر المحض وسدوا على أنفسهم الباب وقالوا : لا تعلل أفعال الرب تعالى ولا هي مقصود بها مصالح العباد وإنما مصدرها محض المشيئة وصرف الإرادة فأنكروا حكمة الله في امره ونهيه

وفرقة نفت لأجله القدر جملة وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله حتى يطلب لها وجوه الحكمة وإنما هي خلقهم وأبداعهم فهي واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم فلا يقع على السداد والصواب إلا أقل القليل منها فهاتان الطائفتان متقابلتان أعظم تقابل

فالأولى - غلت في الجبر وإنكار الحكم المقصودة في أفعال الله

والثانية - غلت في القدر وأخرجت كثيرا من الحوادث بل أكثرها عن ملك الرب وقدرته وهدى الله أهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فأثبتوا لله عز وجل عموم القدرة والمشيئة وأنه تعالى أن يكون في مسلكه ما لا يشاء أو يشاء ما لا يكون وأن أهل سماواته وأرضه أعجز وأضعف من أن يخلقوا ما لا يخلقه الله أو يحدثوا ما لا يشاء بل ما شاء الله كان ووجد وجوده بمشيئته وما لم يشأ لم يكن وإمتنع وجوده لعدم المشيئة له وأنه لا حول ولا قوة إلا به ولا تتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومع ذلك فله في كل ما خلق وقضى وقدر وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة ما إقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه إلا لحكمة بالغة إن تقاصرت عنها عقول البشر فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته

والطائفة الأولى - جحدت الحكمة

والثانية - جحدت القدرة
والأمة الوسط أثبتت له كمال الحكمة وكمال القدرة .
فالفرقة الأولى - تشهد في المعصية مجرد المشيئة والخلق العاري عن الحكمة وربما شهدت الجبر وأن حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار ونحوها
والفرقة الثانية - تشهد في المعصية مجرد كونها فاعلة محدثة مختارة هي التي شاءت ذلك بدون مشيئة الله
والأمة الوسط تشهد عز الربوبية وقهر المشيئة ونفوذها في كل شيء وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها وإختيارها وإيثارها شهواتها على مرضات ربها فيوجب الشهود الأول لها سؤال ربها والتذلل والتضرع له أن يوفقها لطاعته ويحول بينها وبين معصيته وأن يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته ويوجب الشهود الثاني لها إعترافها بالذنب وإقرارها به على نفسها وأنها هي الظالمة المستحقة للعقوبة وتنزيه ربها عن الظلم وأن يعذبها بغير إستحقاق منها أو يعذبها على ما لم تعمله فيجتمع لها من الشهودين شهود التوحيد والشرع والعدل والحكمة
وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق في مواقعة الذنب وأنها تنتهي إلى ثمانية مشاهد
أحدها - المشهد الحيواني البهيمي الذي شهود صاحبه مقصور على شهوات لذته به فقط وهو في هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات وربما يزيد عليها في اللذة وكثرة التمتع
والثاني - مشهد الجبر وأن الفاعل فيه سواه والمحرك له غيره ولا ذنب له هو وهذا مشهد المشركين وأعداء الرسل عليهم السلام
الثالث - مشهد القدر وهو أنه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقه وهذا مشهد القدرية المجوسية
الرابع - مشهد أهل العلم والإيمان وهو مشهد القدر والشرع يشهد فعله وقضاء الله وقدره كما تقدم
الخامس- مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف وأنه إن لم يعنه الله ويثبته ويوفقه فهو هالك
والفرق بين مشهد هذا ومشهد الجبرية ظاهر السادس مشهد التوحيد وهو الذي يشهد فيه إنفراد الله عز وجل بالخلق والإبداع ونفوذ المشيئة وأن الخلق أعجز من أن يعصوه بغير مشيئته
والفرق بين هذا المشهد وبين المشهد الخامس أن صاحبه شاهد لكمال فقره وضعفه وحاجته وهذا شاهد لتفرد الله بالخلق والإبداع وأنه لا حول ولا قوة إلا به
السابع - مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله عز وجل في قضائه وتخليته بين العبد والذنب ولله في ذلك حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها وذكرنا منها في ذلك الكتاب قريبا من أربعين حكمة الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة ومنشورات أهل العلم والإرادة وقد تقدم في أول هذا الكتاب التنبيه على بعضها
الثامن - مشهد الأسماء والصفات وهو أن يشهد إرتباط الخلق والأمر والقضاء والقدر بأسمائه تعالى وصفاته وأن ذلك موجبها ومقتضاها فأسماؤه الحسنى إقتضت ما إقتضته

من التخلية بين العبد وبين الذنب فإنه الغفار التواب العفو الحليم وهذه أسماء تطلب آثارها وموجباتها ولا بد " فلو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم " . كما جاء فى الحديث الشريف

وهذا المشهد والذي قبله أجل هذه المشاهد وأشرفها وأرفعها قدرا وهما لخواص الخليقة

فتأمل - بعد ما بينهما وبين المشهد الأول وهذان المشهدان يطرحان العبد على باب المحبة ويفتحان له من المعارف والعلوم أمورا لا يعبر عنها وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قل من إستفتحه من الناس وهو شهود الحكمة البالغة في قضاء السيئات وتقدير المعاصي وإنما إستفتح الناس باب الحكم في الأوامر والنواهي وخاضوا فيها وأتوا بما وصلت إليه علومهم وإستفتحوا أيضا بابها في المخلوقات كما قدمناه وأتوا فيه بما وصلت إليه قواهم وأما هذا الباب فكما رأيت كلامهم فيه فقل أن ترى لاحدهم فيه ما يشفى أو يلم

وكيف يطلع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله ولا داخلة تحت مشيئته أصلا وكيف يتطلب لها حكمة أو يثبتها

أم كيف يطلع عليها من يقول : هي خلق الله ولكن أفعاله غير معللة بالحكم ولا يدخلها لام تعليل أصلا وإن جاء شيء من ذلك صرف إلى لام العاقبة لا إلى لام العلة والغاية

فأما إذا جاءت الباء في أفعاله صرفت إلى باء المصاحبة لا إلى باء السببية

وإذا كان المتكلمون عند الناس هم هؤلاء الطائفتان فإنهم لا يرون الحق خارجا عنهما ثم كثير من الفضلاء يتحير إذا رأى بعض أقوالهم الفاسدة ولا يدرى أين يذهب ولما عربت كتب الفلاسفة صار كثير من الناس إذا رأى اقوال المتكلمين الضعيفة

وقد قالوا : إن هذا هو الذي جاء به الرسول قطع القنطرة وعدي إلى ذلك البر وكل ذلك من الجهل القبيح والظن الفاسد أن الحق لا يخرج عن أقوالهم فما أكثر خروج الحق عن أقوالهم وما أكثر ما يذهبون في المسائل التي هي حق وصواب إلى خلاف الصواب

والمقصود - أن المتكلمين لو اجمعوا على شيء لم يكن إجماعهم حجة عند أحد من العلماء فكيف إذا اختلفوا

والمقصود - أن مشاهدة حكمة الله في أقضيته وأقداره التي يجربها على عباده بإختياراتهم وإراداتهم هي من ألطف ما تكلم فيه الناس وأدقه واغمضه وفي ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكيم العليم سبحانه ونحن نشير إلى بعضها

فمنها أنه سبحانه يحب التوابين حتى أنه من محبته لهم يفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة إذا فقدها وآيس منها وليس في أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح

كما سنوضح ذلك ونزيده تقريرا عن قريب إن شاء الله ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح

ومن المعلوم - أن وجود المسبب بدون سببه ممتنع وهل يوجد ملزوم بدون لازمه أو غاية بدون وسيلتها

وهذا معنى قول : بعض العارفين

ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما إبتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه فالتوبة هي غاية كمال كل آدمي وإنما كان كمال أبيهم بها فكم بين حالة وقد قيل : له (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) **طه 118 -119**

وبين **قوله : تعالى** (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ) **طه 122**

فالحال الأولى حال أكل وشرب وتمتع والحال الأخرى حال إجتباء وإصطفاء وهداية فيما بعد ما بينهما ولما كان كماله بالتوبة كان كمال بنيه أيضا بها كما **قال : تعالى** (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) **الفتح 6**

فكمال الآدمي في هذه الدار بالتوبة النصوح وفي الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة وهذا الكمال مرتب على كماله الأول

والمقصود ـ أنه سبحانه لمحبته التوبة وفرحة بها يقتضي على عبده بالذنب ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة وإن كان ممن غلبت عليه شقاوته أقام عليه حجة عدله وعاقبة بذنبه

فصل

ومنها أنه سبحانه يجب أن يتفضل عليهم ويتم عليهم نعمه

ويريهم مواقع بره وكرمه فلمحبته الإفضال والإنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ويعفو عمن ظلم ويغفر لم أذنب ويتوب على من تاب إليه ويقبل عذر من إعتذر إليه وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة وهو أولى بها منهم وأحق وكان له في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول فسبحانه وبحمده

وحكى بعض العارفين أنه قال : طفت في ليلة مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف وطابت نفسي فوقفت عند الملتزم ودعوت الله فقلت : اللهم اعصمني حتى لا أعصيك فهتف بي هاتف أنت تسألني العصمة وكل عبادي يسألوني العصمة فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر قال : فبقيت ليلتي إلى الصباح أستغفر الله حياء منه هذا

ولو شاء الله عز وجل أن لا يعصي في الأرض طرفة عين لم يعص ولكن إقتضت مشيئيه ما هو موجب حكمته سبحانه فمن أجهل بالله ممن يقول : أنه يعصي قسرا بغير إختياره وميشيئته سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

فصل

ومنها انه سبحانه له الأسماء الحسنى

ولكل اسم من أسمائه اثر من الآثار في الخلق والأمر لا بد من ترتبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير ونظائر ذلك في جميع الأسماء فلو لم يكن في عباده من يخطيء ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها فكما أن اسمه الخالق يقتضي

مخلوقا والبارئ يقتضي مبرورا والمصور يقتضي مصورا ولا بد فأسماؤه الغفار التواب تقتضي مغفورا له ما يغفره له

وكذلك من يتوب عليه وأمورا يتوب عليه من أجلها ومن يحكم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق الحلم والعفو

فإن هذه الأمور متعلقة بالغير ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها وهذا باب أوسع من أن يدرك واللبيب يكتفي منه باليسير وغليظ الحجاب في واد ونحن في واد

وان كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفي شيجه من خزامه

فتأمل - ظهور هذين الإسمين اسم الرزاق واسم الغفار في الخليقة ترى وما يعجب العقول

وتأمل آثارهما حق التأمل في أعظم مجامع الخليقة

وانظر - كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما كان له من قيام أصلا فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة فإما متصلا بنشاته الثانية إما مختصا بهذه النشأة

فصل

ومنها أنه سبحانه يعرف عباده عزه في قضائه وقدره

ونفوذ مشيئته وجريان حكمته وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ولا مفر له منه بل هو في قبضة مالكه وسيده وأنه عبده وابن عبده وابن امته ناصيته بيده ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه

فصل

ومنها أنه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته

وصيانته وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلى من يحفظه ويصونه فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد وقد مدت الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله وإفساد شأنه كله وإن مولاه وسيده إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله

فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد الى نفسه وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينه وبين نفسه

فصل

ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة

له من إستعاذته وإستعانته به من شر نفسه وكيد عدوه ومن أنواع الدعاء والتضرع والإبتهال والإنابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة

ومنها ما لا تدركه العبارة وإنما يدرك بوجوده فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب ويجد العبد من نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائيا عنه وهذا الذي أثمر له أن الله يحب التوابين وهو ثمرة لله أفرح بتوبة عبده.

وأسرار هذا الوجه يضيق عنها القلب واللسان فكم بين عبادة يدل صاحبها على ربه بعبادته شامخ بأنفه كلما طلب منه أوصاف العبد قامت صور تلك الأعمال في نفسه فحجبته عن معبوده وإلاهه وبين عبادة من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرعونات والحماقات والخيالات فهو لا يرى نفسه إلا مسيئا كما لا يرى ربه إلا

محسنا فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين قد كسر إزدراؤه على نفسه قلبه وذلل لسانه وجوارحه وطأطأ منه ما إرتفع من غيره فقلبه واقف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس خاشع خاضع غاض البصر خاشع الصوت هادئ الحركات قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكفى به حكمة والله المستعان

فصل

ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته

فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والإنقياد وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا لله وإنقيادا وطاعة والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقهره وذليل لربوبيته فيه وتصرفه وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه

فإن من أحسن اليك فقد إستعبدك وصار قبلك معبدا له وذليلا تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس في جلب كل ما ينفعه ودفع كل ما يضره .

وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز ما لا يقتضيه غيرهما : -

أحدهما - ذل المحبة وهذا نوع آخر غير ما تقدم وهو خاصة المحبة ولبها بل روحها وقوامها وحقيقتها وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد والتملق والإيثار والرضا والحمد والشكر والصبر والتندم وتحمل العظائم ما لا يستخرجه الخوف وحده ولا الرجاء وحده

كما قال : بعض الصحابة إنه ليستخرج محبته من قلبي من طاعته ما لا يستخرجه خوفه أو كما قال . فهذا ذل المحبين

الثاني - ذل المعصية فإذا إنضاف هذا إلى هذا هناك فنيت الرسوم وتلاشت الأنفس وإضمحلت القوى وبطلت الدعاوى جملة وذهبت الرعونات وطاحت الشطحانات ومحيي من القلب واللسان أنا وأنا واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض والهجر وتجرد الشهودان فلم يبق إلا شهود العز والجلال الشهود المحض الذي تفرد به ذو الجلال والإكرام الذي لا يشاركه أحد من خلقه في ذرة من ذراته وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه بكل إعتبار فيشهد غاية ذله وإنكساره وعزة محبوبه وجلاله وعظمته وقدرته وغناه

فإذا تجرد له هذان الشهودان ولم يبق ذرة من ذرات الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شاهدها فيه بالفعل وقد شهد مقابلها هناك فلله أي مقام أقيم فيه هذا القلب إذ ذاك وأي قرب حظي به وأي نعيم أدركه وأي روح باشره

فتأمل الآن موقع الكسرة التي حصلت له بالمعصية في هذا الموطن ما أعجبها وما أعظم موقعها كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوي والرعونات وأنواع الأماني الباطلة ثم أوجبت له الحياء والخجل من صالح ما عمل ثم أوجبت له إستكثار قليل ما يرد عليه من ربه لعلمه بأن قدره أصغر من ذلك وأنه لا يستحقه وإستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والماحيات إلى أعظم من هذا فهو لا يزال محسنا وعند نفسه المسيء المذنب متكسرا ذللا خاضعا لا يرتفع له رأس

ولا ينقام له صدر وإنما ساقه إلى هذا الذل والذي أورثه إياه مباشرة الذائب فأي شيء أنفع له من هذا الدواء

لعل عتبك محمود عواقبه   وربما صحت الأجسام بالعلل

ونكتة هذا الوجه أن العبد متى شهد صلاحه وإستقامته شمخ بانفه وتعاظمت نفسه وظن أنه وأنه أي عظيما فإذا إبتلى بالذنب تصاغرت إليه نفسه وذل وخضع وتيقن أنه وأنه أي عبدا ذليلا

فصل

ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه وأنها الظالمة

وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه إذ الجهل والظلم منبع الشر كله وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربها تعالى هو الذي زكاها به وأعطاها إياه لا منها فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي ظلمه وجهله فهو تعالى الذي يزكى من يشاء من النفوس فتزكو وتأتي بأنواع الخير والبر ويترك تزكية من يشاء منها فتأتي بأنواع الشر والخبث وكان من دعاء " النبي صلى الله عليه وسلم اللهم آت نفسي تقوها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " .

فإذا إبتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فرتب له على ذلك التعريف حكم ومصالح عديدة منها أنه يأنف من نقصها ويجتهد في كمالها

ومنها ـ أنه يعلم فقرها دائما إلى من يتولاها ويحفظها

ومنها ـ أنه يستريح ويريح العباد من الرعونات والحماقات التي إدعاها أهل الجهل في أنفسهم من قدم أو إتصال بالقديم أو إتحاد به أو حلول فيه أوغير ذلك من المحالات

فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص انفسهم وحقيقتها لم يقعوا فيما وقعوا فيه

فصل

ومنها تعريفه سبحانه عبده سعة حلمه وكرمه

في ستره عليه وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يطب له معهم عيش أبدا ولكن جلله بستره غشاه بحلمه وقيض له من يحفظه وهو في حالته تلك بل كان شاهدا وهو يبارزه بالمعاصي والآثام وهو مع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام وقد **جاء في بعض الآثار**

يقول : الله تعالى أنا الجواد الكريم من أعظم مني جودا وكرما عبادي يبارزونني بالعظائم وأنا أكلوهم في منازلهم

فأي حلم أعظم من هذا الحلم وأي كرم أوسع من هذا الكرم فلولا حلمه وكرمه ومغفرته لما إستقرت السماوات والأرض في أماكنها وتأمل **قوله : تعالى**

(**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**)   **فاطر 41**

هذه الآية تقتضي الحلم والمغفرة فلولا حلمه ومغفرته لزالتا عن أماكنهما ومن هذا

قوله : تعالى (**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا**)

مريم 90 - 91

فصل

ومنها تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته

وأنه رهين بحقه فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة فليس
ومنها ـ تعريفه عبده كرمه سبحانه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته فهو الذي جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها ثم قبلها منه فتاب عليه أولا وآخرا فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقا وتوبة ثانية منه عليه قبولا ورضا فله الفضل في التوبة والكرم أولا وآخرا لا إله إلا هو
ومنها ـ إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد ان لله عليه الحجة البالغة فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال من أين هذا ولا من أين أتيت ولا بأي ذنب أصبت فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه وما يعفو الله عنه أكثر ومانزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة
ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ولا يدري العبد أي النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب كما جاء فى الحديث الشريف " وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه " .
وإذا كان للذنوب عقوبات ولا بد فكلما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهل بكثير
فصل
ومنها أن يعامل العبد بني جنسه في إسائتهم إليه وزلاتهم معه
بما يحب أن يعامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه فإن الجزاء من جنس العمل فمن عفا عفى الله عنه ومن سامح أخاه في إساءته إليه سامحه الله في سيئاته ومن أغضي وتجاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى عليه ولا تنس حال "الذي قبضت الملائكة روحه فقيل له هل عملت خيرا هل عملت حسنة قال : ما أعلمه قيل تذكر قال : كنت أبايع الناس فكنت أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر أو قال : كنت أمر فتياني أن يتجاوزوا في السكة فقال : الله نحن أحق بذلك منك وتجاوز الله عنه " . حديث نبوى
فالله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم فإذا عرف العبد ذلك كان في إبتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ما هو أنفع الأشياء له
فصل
ومنها انه إذا عرف هذا فاحسن الى من اساء اليه
ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى وأنه سبحانه يقابل إساءته وذنوبه بإحسانه كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه والله أوسع فضلا وأكرم وأجزل عطاء فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه
فليتأمل هو حاله مع الله كيف هي مع فرط إحسانه إليه وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له
فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكرأن يكون الناس له بتلك المنزلة

ومنها - أنه يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم ويتفرج بطانه ويزول عنه ذلك الحصر والضيق والإنحراف وأكل بعضه بعضا ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء

فإنه حينئذ يرى نفسه واحدا منهم فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم

فأين هذا من حاله الأولى وهو ناظر إليهم بعين الإحتقار والإزدراء لا يجد في قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاة فالذنب في حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمته مع هذا فيقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحسانا إليهم إذ هوعين مصالحتهم لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة

فصل

ومنها أن يخلع صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء الكبر

والعظمة الذي ليس له ويلبس ردءا الذل والإنكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه ما هو من أعظم الآفات كما في الحديث " لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب " . أو كما قال : صلى الله عليه وسلم

فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار كما قيل : يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب وألبست رداء العبودية يا آدم لا تجزع من قولي لك أخرج منها فلك خلقتها ولكن إنزل إلى دار المجاهدة وابذر بذر العبودية فإذا كمل الزرع واستحصد فتعال فإستوفه لا يوحشنك ذاك العتب " .

إن له لطفا يريك الرضا في حالة الغضب فبينما هو لابس ثوب الإذلال الذي لا يليق بمثله تداركه ربه برحمته فنزعه عنه وألبسه ثوب الذل الذل لا يليق بالعبد غيره فما لبس العبد ثوبا أكمل عليه ولا أحسن ولا أبهى من ثوب العبودية وهو ثوب المذلة الذي لا عز له بغيره

فصل

ومنها ان لله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية من الخشية

والخوف والإشفاق وتوابعها من المحبة والإنابة وإبتغاء الوسيلة إليه وتوابعها وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها فكلما قيضه الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيجة له فهو من أسباب رحمته له ورب ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف والإشفاق والوجل والإنابة والمحبة والإيثار والفرار إلى الله ما لا يهيجه له كثير من الطاعات وكم من ذنب كان سببا لإستقامة العبد وفراره إلى الله وبعده عن طرق الغي وهو بمنزلة من خلط فأحس بسوء مزاجه وكان عنده أخلاط مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها فشرب دواء أزال تلك الأخلاط العفنة التي لو دامت لترامت به إلى الفساد والعطب وإن من تبلغ رحمته ولطفه وبره بعبده هذا المبلغ وما هو أعجب وألطف منه لحقيق بأن يكون الحب كله له والطاعات كلها له وأن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر

فصل

ومنها أنه يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له

وحفظه إياه فإنه من تربى في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار النعمة فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة وأن الله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وأن تسودوا التراب ومضغوا الحصى فهم أهل النعمة المطلقة وأن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه وهان عليه وأن ذلك ليس من كرامته على ربه وإن وسع الله عليه في الدنيا ومد له من أسبابها فإنهم أهل الإبتلاء على الحقيقة

فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه في بلية وضائقة تداركه الله برحمته وإبتلاه ببعض الذنوب فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حالة وأن يمنعه الله بعافيته

فصل

ومنها أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة

من المقامات التي لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته فرتب له على ذلك القبول أنواعا من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها

فصل

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته

أعظم فرح وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل فلا ينسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح

وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحا وأنت لا تدري بسبب ذلك الفرح ما هو وهذا أمر لا يحس به إلا حيي القلب وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ولا يعرف فرحا غيره فوازن إذا بين هذين الفرحين

وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبد

وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الإنشراح الدائم والنعيم وطيب العيش ووازن بين هذا وهذا ثم اختر ما يليق بك ويبسابك وكل يعمل على شاكلته وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه

فصل

ومنها أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه

استكثرالقليل من نعم ربه عليه ولا قليل منه لعلمه أن الواصل إليه فيها كثير على مسيء مثله واستقل الكثير من عمله لعلمه بأن الذي ينبغي أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما أتي به فهو دائما مستقل لعلمه كائنا ما كان مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت

وقد تقدم التنبيه على هذا الوجه وهو من ألطف الوجوه فعليك بمراعاته فله تأثير عجيب ولو لم يكن في فوائد الذنب إلا هذا لكفى به

فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغي أن يعطي ما هو فوقها وأجل منها وأنه لا يقدر أن يتكلم وكيف يعاند القدر وهو مظلوم مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته بل هو مغرى بمعاندته لفضله وكماله وأنه كان ينبغي له أن ينال الثريا ويطأ بأخمصه هنالك ولكنه مظلوم مبخوس الحظ

وهذا الضرب من أبغض الخلق إلى الله وأشدهم مقتا عنده وحكمة الله تقتضي أنهم لا يزالون في سفال فهم بين عتب على الخالق وشكوى له وذل لخلقه وحاجة إليهم وخدمة لهم أشغل الناس قلوبا بأرباب الولايات والمناصب ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوانيهم وأفرغ الناس قلوبا عن معاملة الله والإنقطاع إليه والتلذذ بمناجاته والطمأنينة بذكره وقرة العين بخشيته والرضاء به فعياذا بالله من زوال نعمته وتحول عافيته وفجأة نقمته ومن جميع سخطه

فصل

ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه

ومكامنه ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم ومن اين يخرجون عليه وفي أي وقت يخرجون فهو قد إستعد لهم وتأهب وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم فلو انه مر عليهم على غرة وطمأنينه لم يأمن أن يظفروا به ويجتاحوه جملة

فصل

ومنها ان القلب يكون ذاهلا عن عدوه معرضا عنه

مشتغلا ببعض مهماته فإذا اصابه سهم من عدوه إستجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثأره إن كان قلبه حرا كريما كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء بل تراه بعدها هائجا طالبا مقداما والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هاربا والجراحات في أكتافه وكذلك الاسد إذا جرح فإنه لا يطاق فلا خير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثأره من أعدى عدوه فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه ولاعدو أعدى له من الشيطان

فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جد في أخذ الثأر وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه

كما جاء عن بعض السلف إن المؤمن لينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره

فصل

ومنها أن مثل هذا يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم

ودوائهم والطبيب الذي عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي إنما عرفه وصفا هذا في أمراض الأبدان وكذلك في أمراض القلوب وأدوائها

وهذا معنى قول : بعض الصوفية إعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات

وقال : عمر بن الخطاب رضى الله عنه

إنما تنقض عرى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية

ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهادا لأعدائه وتكلما بأعلامه بأمة وتحذيرا من خلافه لكمال علمهم

بضده فجاءهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه فإزدادوا له معرفة وحبا وفيه جهادا بمعرفتهم بضده

وذلك بمنزلة من كان في حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة وأمن وعافية وغنى وبهجة وسرور فإنه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه

وليس حال هذا كمن ولد في الأمن والعافية والغنى والسرور فإنه لم يشعر بغيره وربما قيضت له أسباب تخرجه عن ذلك إلى ضده وهو لا يشعر وربما ظن أن كثيرا من أسباب الهلاك والعطب تفضي به إلى السلامة والأمن والعافية فيكون هلاكه على يدي نفسه وهو لا يشعر وما أكثر هذا الضرب من الناس

فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين وعرف أسباب الهلاك على التفصيل كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم

وفي مثل هذا قال : القائل : -

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطنا حاذقا أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبر الناس

والمقصود - أن من بلى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من إستنصحه من الناس ومن لم يستنصحه

فصل

ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه

وزوال ذلك الأنس والقرب ليمتحن عبده فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه حالها الأول مع الله بل إطمأنت وسكنت إلى غيره علم أنه لا يصلح فوضعه في مرتبته التي تليق به وإن إستغاث إستغاثة الملهوف وتقلق تقلق المركوب ودعا دعاء المضطر وعلم أنه قد فاتته حياته حقا فهو يهتف بربه أن يردعليه حياته ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ما هو إليه فعظمت به فرحته وكملت به لذته وتمت به نعمته واتصل به سروره وعلم حينئذ مقداره فعض عليه بالنواجذ وثنى عليه الخناصر وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده ولله اسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر

فقل لغليظ القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبا عشك البالي
ولا تك ممن مد باعا إلى جنا فقصر عنه قال ذا ليس بالحالي

فالعبد إذا بلى بعد الأنس بالوحشة وبعد القرب بنار البعاد إشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنت وأنت وتصدعت وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدا ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه فإن هذه الذكرى تمنعها القرار وتهيج منها البلابل كما قال : القائل : -

وقد فاته طواف الوادع فركب الأخطار ورجع إليه

ولما تذكرت المنازل بالحمى ولم يقض لي تسليمة المتزود
تيقنت أن العيش ليس بنافعي إذا أنا لـــم أنظر إليها بموعد

وإن إستمر إعراضها ولم تحن إلى معهدها الأول ولم تحس بفاقتها الشديدة وضرورتها إلى مراجعة قربها من ربها فهي ممن إذا غاب لم يطلب وإذا أبق لم يسترجع وإذا جنى لم يتعتب وهذه هي النفوس التي لم تؤهل لما هنالك وبحسب المعترض هذا الحرمان فإنه يكفيه وذلك ذنب عقابه فيه

فصل

ومنها أن الحكمة الإلهية إقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان

وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهماوبهما وقعت المحنة والإبتلاء وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى والهبوط إلى أسفل سافلين فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار ولن يجعل الله من شهوته مصروفة إلى ما أعد له في دار النعيم وغضبه حمية لله ولكتابه ولرسوله ولدينه كمن جعل شهوته مصروفة في هواه وأمانيه العاجلة وغضبه مقصور على حظه ولو أنتهكت محارم الله وحدوده وعطلت شرائعه وسننه بعد أن يكون هو ملحوظا بعين الإحترام والتعظيم والتوقير ونفوذ الكلمة وهذه حال أكثر الرؤساء أعاذنا الله منها فلن يجعله الله هذين الصنفين في دار واحدة فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين وهذا هوى بهما إلى أسفل سافلين

والمقصود - أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هوغاية الحكمة ولا بد أن يقتضي كل واحد من القوتين أثره فلا بد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصي فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ولو لم يخلقا في الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا فالترتب من موجبات الإنسانية كما قال : " النبي صلى الله عليه وسلم " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ".

فأما من إكتنفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ فهم أقل أفراد النوع الإنساني وهم خلاصته ولبه

فصل

ومنها ان الله سبحانه إذا أراد بعبده خيرا أنساه رؤية طاعاته

ورفعها من قلبه ولسانه فإذا إبتلى بالذنب جعله نصب عينيه ونسى طاعاته وجعل همه كله بذنبه فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد أو غدا أو راح فيكون هذا عين الرحمة في حقه

كما قال : بعض السلف

إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النارقالوا : وكيف ذلك قال : يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب إلى الله وذل له وإنكسر وعمل لها أعمالا فتكون سبب الرحمة في حقه ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ويعتد بها على ربه وعلى الخلق ويتكبر بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار

فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان

فصل

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه

موجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلا ولا له على أحد حقا فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرم ما حرم الله ورسوله

وإذا شهد ذلك من نفسه لم يرلها على الناس حقوقا من الإكرم يتقاضاهم إياها ويذمهم على ترك القيام بها فإنها عنده أخس قدرا وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها أو له عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه فإستراح هذا في نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقرعينه وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه أسخط

فصل

ومنها أنه ويوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها

فإنه في شغل بعيب نفسه فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة

ومنها - أنه إذا وقع في الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين

وشهد أن المصيبة واحدة والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضورروة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم كذلك هو أيضا ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم فيصير دعاؤه (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) **نوح 28**

وقد كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة فيجعل له منه وردا لا يخل به وسمعت شيخنا يذكره وذكر فيه فضلا عظيما وربما كان من جملة أوراده التي لا يخل بها وسمعته يقول : إن جعله بين السجدتين جائز

فإذا شهد العبد أن إخوانه مصابون بمثل ما أصيب به محتاجون إلى ما هو محتاج إليه لم يمتنع من مساعدتهم إلا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله وحقيق بهذا أن لا يساعد فإن الجزاء من جنس العمل

وقد : قال بعض السلف إن الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم : (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) **البقرة 30**

وامتحن هاروت وماروت بما إمتحنهما به جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبني آدم وتدعوالله لهم

فصل

ومنها أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئا خاطئا مفرطا

مع فرط إحسان الله إليه في كل طرفة عين وبره به ودفعه عنه وشدة حاجته إلى ربه وعدم إستغنائه عنه نفسا واحدا وهذه حاله معه فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة

وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد ولا يعصونه لا يخلون بحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئهم ويعفو عنه ويسامحه ويغضي عن الإستقصاء في طلب حقه

فهذه الأثمار ونحوها متى إجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه ومن إجتنى منه أضدادها وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهي والله علامة الشقاوة وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه خلى بينه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدله فيعاقبه بإستحقاقه وتتداعى السيئات في حق مثل هذا وتتألف فيتولد من الذنب الواحد ما شاء الله من المتالف والمعاطب التي يهوى بها في دركات العذاب والمصيبة كل المصيبة الذنب الذي يتولد من الذنب ثم يتولد من الإثنين ثالث ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعا وهلم جرا ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك من حيث لا يشعر فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض يتلو بعضها بعضا ويثمر بعضها بعض

قال : بعض السلف

إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها .

وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد والله المستعان

فصل

وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته

بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوايعبرون إليها إلا على جسر من الإبتلاء والإمتحان وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه وكان ذلك الإبتلاء والإمتحان عين المنهج في حقهم والكرامة فصورته صورة إبتلاء وإمتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة فكم لله من نعمة جسيمة ومنه عظيمة تجنى من قطوف الإبتلاء والإمتحان

فتأمل - حال أبينا آدم عليه السلام وما آلت إليه محنته من الإصطفاء والإجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجه من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى ما وصل إليه فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته

وتأمل - حال أبينا الثاني نوح عليه السلام وما آلت اليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم أولوا العزم الذين هم أفضل الرسل وأمر رسوله ونبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يصبر كصبره وأثنى عليه بالشكر **فقال : تعالى** (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) **الإسراء 3**

فوصفه بكمال الصبر والشكر

ثم تأمل - حال أبينا الثالث إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم

وتأمل - ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله

وتأمل - كيف آل به بذله لله نفسه ونصرة دينه إلى أن إتخذه الله خليلا لنفسه وأمر رسوله وخليله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملته

وأنبهك على خصلة واحدة مما اكرمه الله به في محنته بذبح ولده

فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثرة حتى ملأ السهل والجبل فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين فمن ترك لوجهه أمرا أو فعلة لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافا مضاعفة وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافا مضاعفة فلما أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضاء منهما وتسليما وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بذبح عظيم وأعطاهما ما أعطاهما من فضله وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض

فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية ولهذا قال : إبراهيم عليه السلام (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) **الصافات 100**

وقال : (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) **إبراهيم 40**

فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤا الدنيا وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمدا محمدا صلى الله عليه وسلم

وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل فأمر بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك فأوحى الله إلى داود عليه السلام قد علمت أني وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمري أن أبارك له في ذريته حتى يصيروا في عدد النجوم وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم وقد أردت أن تحصى عددا قدرت أنه لا يحصى وذكر باقي الحديث

فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصى عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل عليهما السلام هذا سوى ما أكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجميل على ألسنة جميع الأمم وفي السماوات بين الملائكة

فهذا من بعض ثمرة معاملته فتبا لمن عرفه ثم عامل غيره ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته

فصل

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت اليه محنته

وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلمه الله تكليما وقربه منه وكتب له التوراة بيده ورفعه إلى أعلى السماوات وإحتمل له ما لا يحتمل لغيره فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت وأخذ بلحية نبي الله هارون عليه السلام وجره إليه ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وربه يحبه على ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه ولا سقطت منزلته عنده بل هو الوجيه عند الله القريب ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بنى إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله لم يكن ذلك

ثم تأمل حال المسيح عليه السلام

وصبره على قومه وإحتماله في الله وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق وسلبهم ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر

فصل

فإذا جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتأملت سيرته

مع قومه وصبره في الله وإحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغني وفقر وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والإفتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمعه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأسمعهم عنده شفاعة وكانت تلك المحن والإبتلاء عين كرامته وهي مما زاده الله بها شرفا وفضلا وساقه بها إلى أعلا المقامات

وهذا حال ورثه من بعده الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغدا ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في أهله مسرور له شأن ولهم شأن وهو في واد وهم في واد همه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته لزم من ذلك ما لزم ورضى من رضى وسخط من سخط وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره ورسوله المطاع لا سواه فلله سبحانه من الحكم في إبتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والإبتلاء

كذا المعالي إذا ما رمت تدركها ... فاعبر إليها على جسر من التعب

والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا إلى يوم الدين ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين

فصل

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية

التي لا تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسنها وشهدت بفضلها وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان ولو لم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم ببرهان عليها لكفى بها برهانا وآية وشاهدا على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمباديء والعواقب وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها وممن

إرتضاهم لها فلهذا إمتن على عباده بأن هداهم لها **قال : تعالى** (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) **آل عمران 164**

وقال : تعالى معرفا لعباده ومذكرا لهم عظيم نعمته عليهم مستدعيا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ) **المادة 3**

وتأمل - كيف وصف الدين الذي إختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيذانا بدوامها وإتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار

وتأمل - حسن إقتران التمام بالنعمة وحسن إقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقا وهم قابلوها وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالإختصاص وأنه شيء خصوا به دون الأمم وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالإستعلاء والإشتمال والإحاطة فجاء (أَتْمَمْتُ) في مقابلة (أَكْمَلْتُ)و(عَلَيْكُمْ)في مقابلة (لَكُمُ)و(نِعْمَتِي) في مقابلة (دِينَكُمْ) وأكد ذلك وزاده تقريرا وكمالا وإتماما للنعمة

بقوله : تعالى (وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ)

وكان بعض السلف الصالح

يقول : يا له من دين لو أن له رجالا

وقد ذكرنا فصلا مختصرا في دلآلة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى وأردنا ان نختم به القسم الأول من الكتاب ثم رأينا أن نتبعه فصلا في دلآلة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله إذ هذا من أشرف العلوم التي يكتسبها العبد في هذه الدار ويدخل بها إلى الدار الآخرة وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك لأن ما يصفه الواصفون منه وتنتهي إليه علومهم هو كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها فهو يصف البحر بما يعلق على إصبعه من البلل وأين ذلك من البحر فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر وإنما هي صفة ما علق بالأصبع منه وإلا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منه

وماذا عسى أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها ولكن قد رضى الله من عباده بالثناء عليه وذكر ألآئه وأسمائه وصفاته وحكمته وجلاله مع أنه لا يحصى ثناء عليه أبدا بل هو كما أثنى على نفسه فلا يبلغ مخلوق ثناءا عليه تبارك وتعالى ولا وصف كتابه ودينه بما ينبغي له بل لا يبلغ أحد من الأمة ثناء على رسوله صلى الله عليه وسلم كما هو أهل أن يثني عليه بل هو فوق ما يثنون به عليه ومع هذا إن الله تعالى يحب أن يحمد ويثني عليه وعلى كتابه ودينه ورسوله

فهذه مقدمة اعتذار بين يدي القصور والتقصير من راكب هذا البحر الأعظم والله عليم بمقاصد العباد دنياهم وهو أولى بالعذر والتجاوز

فصل

وبصائر الناس في هذا النور الباهر

تنقسم الى ثلاثة اقسام : -

أحداها - من عدم بصيرة الإيمان جملة فهو لا يرى من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد والبرق فهو يجعل أصبعيه في أذنه من الصواعق ويده على عينه من البرق خشية أن يخطف بصره ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة **الأبدية**

فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الدين رأسا ولم يقبل هدى الله الذي هدى به عباده ولو جاءته كل آية لأنه ممن سبقت له الشقاوة وحقت عليه الكلمة ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه

القسم الثاني - أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلى جرم الشمس فهم تبع لآبائهم وأسلافهم دينهم دين العادة والمنشأ

وهم الذين قال : فيهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه و منقادا للحق لا بصيره له في إصابة

فهؤلاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهم شك ولا ريب فهم على سبيل نجاة

القسم الثالث - وهو خلاصة الوجود ولباب بني آدم وهم أولوا البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بصيرة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم

كما قال : فيهم علي بن أبي طالب رضى الله عنه أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق

هذا علامة من عدم البصيرة فإنك تراه يستحسن الشيء وضده ويمدح الشيء ويذمه بعينه إذا جاء في قالب لا يعرفه فيعظم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ويرى عظيما مخالفته ثم هو من أشد الناس مخالفة له ونفيا لما أثبته ومعاداة للقائمين بسنته وهذا من عدم البصيرة

فهذا القسم الثالث إنما عملهم على البصائر وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل كما قال : بعض السلف

وقد ذكر السابقين فقال : إنما كانوا يعملون على البصائر وما أوتي أحد أفضل من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل **قال : تعالى** (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) ص **45**

قال : ابن عباس رضى الله عنهما

أولي القوة : في طاعة الله والإبصار : في المعرفة في أمر الله

وقال : قتادة ومجاهد

أعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين

وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا إختلف الناس وإن كان مقصرا في العمل وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصى مقادير تفاوتها إلا الله إذا عرف هذا : -
فالقسم الأول - لا ينتفع بهذا الباب ولا يزداد به إلا ضلالة
والقسم الثاني - ينتفع منه بقدر فهمه وإستعداده
والقسم الثالث - وإليهم هذا الحديث يساق وهم أولوا الألباب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة **قال : تعالى** (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) **الرعد 19**

فصل

قد شهدت الفطر والعقول بأن للعالم ربا قادرا حليما عليما رحيما

كاملا في ذاته وصفاته لا يكون إلا مريدا للخير لعباده مجريا لهم على الشريعة والسنة الفاضلة العائدة بإستصلاحهم الموافقة لما ركب في عقولهم من إستحسان الحسن وإستقباح القبيح وما جبل طباعهم عليه من إيثار النافع لهم المصلح لشأنهم وترك الضار المفسد لهم وشهدت هذه الشريعة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه المحيط بكل شيء علما

وإذا عرف ذلك فليس من الحكمة الإلهية بل ولا الحكمة في ملوك العالم أنهم يسوون بين من هو تحت تدبيرهم في تعريفهم كلما يعرفه الملوك وإعلامهم جميع ما يعلمونه وإطلاعهم على كل ما يجرون عليه سياساتهم في أنفسهم وفي منازلهم حتى لا يقيموا في بلد فيها إلا أخبروا من تحت أيديهم بالسبب في ذلك والمعنى الذي قصدوه منه ولا يأمرون رعيتهم بأمر ولا يضربون عليهم بعثا ولا يسوسونهم سياسة إلا أخبروهم بوجه ذلك وسببه وغايته ومدته بل لا تتصرف بهم الأحوال في مطاعمهم وملابسهم ومراكبهم إلا أوقفوهم على أغراضهم فيه

ولا شك أن هذا مناف للحكمة والمصلحة بين المخلوقين فكيف بشأن رب العالمين وأحكم الحاكمين الذي لا يشاركه في علمه ولا حكمته أحد أبدا فحسب العقول الكاملة أن تستدل بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها وتعلم أن له حكمة في كل ما خلقه وأمر به وشرعه

وهل تقتضي الحكمة أن يخبر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعله ويوقفهم على وجه تدبيره في كل ما يريده وعلى حكمته في صغير ما ذرأ وبرأ من خليقته وهل في قوى المخلوقات ذلك بل طوى سبحانه كثيرا من صنعه وأمره عن جميع خلقه فلم يطلع على ذلك ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا والمدبر الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته وإبتغاؤه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته كفا في ذلك تتبع مقاصده فيمن يولي ويعزل وفي جنس ما يأمر به وينهي عنه وفي تدبيره لرعيته وسياسته لهم دون تفاصيل كل فعل من أفعاله اللهم إلا أن يبلغ الأمر في ذلك مبلغا لا يوجد لفعله منفذ ومساغ في المصلحة أصلا فحينئذ يخرج بذلك عن إستحاق اسم الحكيم ولن يجد أحد في خلق الله ولا في أمره ولا واحدا من هذا الضرب بل غاية ما تخرجه نفس المتعنت أمور يعجز العقل عن معرفة وجوهها وحكمتها

وأما أن ينفى ذلك عنها فمعاذ الله إلا أن يكون ما أخرجه كذب على الخلق والأمر فلم يخلق الله ذلك ولا شرعة وإذا عرف هذا فقد علم أن رب العالمين أحكم الحاكمين

والعالم بكل شيء والغني عن كل شيء والقادر على كل شيء ومن هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة وما يخفى على العباد من معاني حكمته في صنعه وإبداعه وأمره وشرعه فيكفيهم فيه معرفته بالوجه العام أن تضمنته حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها وأن ذلك من علم الغيب الذي إستأثر الله به فيكفيهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التي علموا ما خفي منها بما ظهر لهم هذا وأن الله تعالى بني أمور عباده على أن عرفهم معاني جلائل خلقه وأمره دون دقائقهما وتفاصيلهما وهذا مطرد في الأشياء أصولها وفروعها

فأنت إذا رأيت الرجلين مثلا أحدهما أكثر شعرا من الآخر أو أشد بياضا أو أحد ذهنا لأمكنك أن تعرف من جهة السبب الذي أجرى الله عليه سنة الخلقية وجه إختصاص كل واحد منهما بما أختص به

وهكذا في إختلاف الصور والأشكال ولكن لو أردت أن تعرف ماذا كان شعر هذا مثلا يزيد على شعر الآخر بعدد معين أو المعنى الذي فضله به في القدر المخصوص والتشكيل المخصوص ومعرفة القدر الذي بينهما من التفاوت وسببه لما أمكن ذلك أصلا

وقس - على هذا جميع المخلوقات من الرمال والجبال والأشجار ومقادير الكواكب وهيآتها وإذا كان لا سبيل إلى معرفة هذا في الخلق بل يكفي فيه العلة العامة والحكمة الشاملة

فهكذا في الأمر يعلم أن جميع ما أمر به متضمن لحكمة بالغة وأما تفاصيل أسرار المأمورات والمنهيات فلا سبيل إلى علم البشرية ولكن يطلع الله من شاء من خلقه على ما شاء منه فاعتصم بهذا الأصل .

وآخردعوانا أن الحمد لله رب العالمين